الفصل الثالث

تالكوت بارسونز والحل المعيارى لمشكلة النظام

مقدمة :

يثار أمامنا فى البداية سؤال على جانب كبير من الأهمية : لماذا هذا التخطى للكثير من العلماء والتركيز على تالكوت بارسونز ؟ والاجابة عن هذا السؤال متشعبة لها جوانب عديدة . أولها تلك الشهرة التى حظى بها تالكوت بارسونز وأعماله ، وهى شهرة لم تتوفر لعالم اجتماع أوربى أو امريكى فى القرن العشرين . قد جعلت هذه الشهرة من الوظيفة (ومن بعدها نظرية الفعل) — التى انتمى اليها بارسونز — اشهر نظريات علم الاجتماع واكثرها قبولا بين علمائه فى الولايات المتحدة على وجه الخصوص . ففى بحث أجراه جولدنر وزميل له عام ١٩٤٦ على عينة تحوى ٣٤٠٠ من المشتغلين بعلم الاجتماع ، طلب من المبحوثين ان يعبروا عن آرائهم تجاه السؤال التالى : « هل لاتزال الوظيفية والتحليل الوظيفى يحتفظ بقيمة كبرى فى علم الاجتماع المعاصر ؟ » ، عبر ٨٠٪ من المبحوثين عن موافقتهم على هذه القضية (١) . وتكشف استجابة علماء الاجتماع هذه عن ذلك التأثير الضافى الذى تحظى به الوظيفية فى الولايات المتحدة الامريكية . ولا شك انها اكتسبت ذلك التأثير من خلال ارتباطها بتالكوت بارسونز او ارتباطه بها .

بالاضافة الى ذلك فان فكر تالكوت بارسونز يمثل امتدادا طبيعيا لفكر كل من دوركايم وماكس فيبر . فسوف نرى من استعراضنا لنظريات تالكوت

---

(١) نشر جولدنر بعض نتائج هذا البحث فى كتابه « **الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى** » والسابق الاشارة اليه .

بارسونز انه هضم علم الاجتماع الكلاسيكى الاوربى ـ خاصة نظريات ماكس فيبر ودوركايم وباريتو ومارشال (٢) . وقدم له صياغة امريكية جديدة تمثلت فى مشروع نظرى كبير يتخذ من نظرية الفعل الاجتماعى اطارا له ، وجند بارسونز تلاميذه ومريديه للترويج لتلك الصياغة الأمريكية التى قدمها بحيث أصبحت تسيطر سيطرة كاملة على المؤسسة الاكاديمية فى علم الاجتماع الغربى . ومن ثم فانه يمكن القول بأن معالجة بارسونز تمثل امتدادا لمعالجة الفكر فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين دون اى فجوة فكرية (٣) .

وهناك نقطة هامة اخرى تبرهن على اهمية معالجة فكر تالكوت بارسونز ، وهى تتعلق بمشكلة النظام التى تهتم بها هذه الدراسة . فقد دخل بارسونز ـ دون الكثير من علماء الاجتماع ـ فى حوار مع مذهب المنفعة الذى صاغه هوبز ، وحاول أن يتخطى الحل القهرى لمشكلة النظام والذى قدمه هوبز ، مقدما حلا معياريا لهذه المشكلة . ومن هنا فان نظريات تالكوت بارسونز تعتبر اكثر النظريات المعاصرة ارتباطا بمشكلة النظام . واذا كنا قد أكدنا ان بارسونز هو الوجه البارز على مسرح علم الاجتماع الغربى ، فان نظريته تعتبر أكثر النظريات تمسكا بالاتجاه المحافظ واشدها دفاعا عنه . ومن ثم فان معالجتها تعتبر معالجة للصورة المعاصرة لعلم الاجتماع الغربى

---

(٢) تجدر الاشارة الى أن بارسونز قد تلقى تعليمه فى أوربا واظهر اهتماما مبكرا بأعمال ماكس فيبر ودوركايم ونقل بعض اعمال الأول الى الانجليزية . انظر تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، **مرجع سابق** ص ٣٦٢ .

(٣) لم تلعب الاتجاهات السوسيولوجية التى سادت أمريكا فى بداية هذا القرن وحتى العقد الرابع منه سوى دور طفيف فى الفكر السوسيولوجى ولقد كانت كلها اتجاهات ترتبط بأعمال سنمر ، وسمول ، وليستر وارد ، وتنبثق من الدارونية الاجتماعية المتأثرة بهربرت سبنسر . انظر تيماشيف « نظرية علم الاجتماع » **مرجع سابق** ، ص ٨٥ وما بعدها .

ويمكن أن نرتب على هذه النقطة نقطة أخرى مؤداها أن الاتجاهات النقدية الحديثة فى علم الاجتماع الغربى ما هى الا حوار مع الاتجاه السائد فى علم الاجتماع الغربى كما يتمثل فى آراء تالكوت بارسونز . فسوف نرى فى القسم الثانى من هذا الكتاب أن الاتجاهات النقدية الحديثة قد ظهرت بناء على فشل الاتجاهات المرتبطة بالنظام فى تفسير الواقع الاجتماعى بما يكشف عنه من صراعات وتوترات بنائية وفكرية ، ومن ثم تحاول الاتجاهات النقدية أن تغير من مسار النظرية المرتبطة بالنظام لتصبح أكثر رحابة وشمولا فى تفسيرها لعناصر الواقع الاجتماعى . ولتحقيق هذا الهدف تلجأ الاتجاهات النقدية الى نقد الاتجاهات القديمة ومحاولة اثـــارة التوترات والصراعات داخلها لكى تصل الى حالة من الانهيار يمكن بعدها أن تنشأ نظرية جديدة تحل محلها . معنى ذلك أن ثمة علاقة جدلية ديالكتيكية بين هذه الاتجاهات النقدية وبين الاتجاهات المرتبطة بالنظام ، وأن هذه العلاقة الجدلية هى علاقة مستمرة ومتصلة ، وسوف تصل الى نهايتها بتغيير الاتجاهات القديمة . بناء على ذلك فاننا لايمكن أن ندخل فى دراسة الاتجاهات النقدية الحديثة دون معالجة للصورة المعاصرة للاتجاهات القديمة المرتبطة بالنظام كما تتمثل فى أعمال تالكوت بارسونز .

بالرغم من أن القيم والمعايير قد لعبت دورا هاما فى الحل الذى قدمه بارسونز عام ١٩٣٧ فى كتابه « بناء الفعل الاجتماعى » فان بارسونز لم يتخل عن دور القيم فى تدعيم النسق وتحقيق التكامل فيه فى كل أعماله التالية . ومن هنا فان تتبع الحل المعيارى سيفرض علينا تتبعا لآراء بارسونز بدءا من علاقتها بالظروف البنائية والفكرية فى عصره ، ذلك لاننا كنا نؤمن جدلا بأن فكر بارسونز كان رد فعل لمشكلة نظام ملحة فرضت نفسها مع الانهيار العظيم فى المجتمع الأمريكى فى العقد الرابع من هذا القرن ، فان ذلك يفرض علينا أن نكشف عن الأطار الفكرى والبنائى الذى ظهر فيه هذا الفكر ، ثم نتتبع بعد ذلك عناصر الحل المعيارى فنعرض للحوار الذى قدمه بارسونز مع هوبز ، ونقدم عرضا للنظرية الطوعية عند بارسونز ونظريته عن النسق ودور القيم فيها ، ثم نختتم الحديث بتناول موضوعى : التغير ، والصراع فى فكر بارسونز .

على اننا يجب ان نؤكد انه من خلال ذلك العرض فاننا نحاول ان نبرز حقيقتين هامتين تخدمان الفكرة الرئيسية فى هذا الكتاب وهما : الدور الكبير الذى تلعبه القيم والمعايير فى المشروع النظرى لتالكوت بارســـونز ، ثم الاهمية التى اولاها بارسونز للتكامل بين عناصر النسق الاجتمـــاعى على حساب قضايا التغير والصراع .

اولا : الاطار البنائى والفكرى لنظرية تالكوت بارسونز

ظهرت اول اعمال بارسونز الهامة « بناء الفعل الاجتمـــاعى » فى عام ١٩٣٧ ، فى العقد الرابع من القرن العشرين ، حيث كان المجتمع الأمريكى يعانى من مجموعة من الاضطرابات الاقتصادية الناتجة عن أزمة عام ١٩٣٠ . وقد اثر هذا البناء التحتى المضطرب على عناصر البناء الفوقى بما فيها من افكار ، وايديولوجيات ، فاصابها الاضطراب هى الأخرى ، فكثيرا مايوصف بداية العقد الرابع فى امريكا « بالانهيار العظيم » Great Crash ذلـــك لانه قد أصاب النسق الاقتصادى تدهور كبير ، كما تعطل ربع العمـــال الأمريكيين ، وعاشوا فى فقر مدقع ، وتحكم عدد قليـــل من الراسماليين فى سوق الانتاج ، فاتسعت الهوة بين الطبقات ، واضطرب النسق الصناعى والوهم وعدم خبرة فردية لكل عامل .

ولقد استفاض بوتومور فى كتابه : « فى وصف هذه الفترة من الحياة الأمريكية من خلال عرض مجموعة من الدراسات والآراء التى ظهرت فى هذه الفترة . على انه يهمنا من هذه الدراسات بحث روبرت وهيلين لبند Lynd عن « الميدلتاون » «Middletown»والذى اجرى عام ١٩٢٤ ، فقد أوضح هذا البحث بجلاء بعض مظاهر عدم المساواة فى الثروة والقوة بين الطبقات الاجتماعية فى المجتمع الأمريكى وخاصة طبقة العمال ، وأصحاب الاعمال . فقد انتشر بين هاتين الطبقتين قدر كبير من الشك والتوتر ، واصبح الامتعاض والوهم ، وعدم الأمن خبرة فردية لكل عامل .

وقد نفذ روبرت وهيلين لينـد بحثا آخـــر فى عام ١٩٣٥ بعنـوان : « الميدلتاون فى تحول » وذلك لملاحظة تأثير الانهيار الاقتصادى على المدينة حيث أظهر البحث تجمد الانقسامات الطبقية وضعف الوعى الطبقى لـدى العمال . فقد أيد البحث نتائج الانتخابات التى أجريت فى هذه الفترة ، حيث صوت ملايين العاطلين لكل من روزفلت وهوفر فى الوقت الذى منى فيـه البرنامج الاشتراكى بالفشل الذريع(٤) .

ومن الدراسات الأخرى فى هذه الفترة دراسة بيرل Berle (الابن) ومينز Means عن : « الاتحادات الحديثة والملكية الخاصة » عام ١٩٣٢ حيث استرعيا الانتباه الى تغيرين رئيسيين فى النسق الاقتصادى الامريكى ، يتمثل التغير الأول فى تركز الانتاج الصناعى فى عدد صغير نسبيا من الشركات الكبيرة . ويظهر التغير الثانى فى الفصل بين ملكية الصناعية وادارتها .

ولقـــد أدى التغير الأول الى الاحتكار الذى قضى على المنافســـة وميكانيزمات ، السوق اما التغير الثانى فقد أدى الى اتصاف المديرين بصفة الامراء او الوزراء . قد خلص الباحثان من دراستهما الى أن الاقتصـــاد يحتاج الى تنظيم عن طريق الدولة وانه فى أثناء هذا التنظيم يجب أن تكون هناك جماعة عمل مسئولة تلعب الدور الاساسى فى هذا التنظيم .

على انه يمكن ملاحظة أفكار مشابهة لتلك الافكار السابقة فى كتاب كل من : جيمس برنهام « الثورة الادارية » ، وكتاب ثيرمان ارنولد « فولكلور الراسمالية » ، وكلها دراسات توضح التدهور الذى لحق بالمجتمع الأمريكى فى هذه الفترة (٥) .

ولقد ادى هذا التفكك الذىانتاب البناء التحتى الاقتصادى الى تحلل اخـــلاقى Demoralization واضحت القيم التقـــليدية مهـــددة بالـــرفض او التغير تحت تأثير الأزمة ، ونشأ صراع داخل الثقافة البورجوازية بين المنفعة والأخلاق ، أو الحقوق الطبيعية ، بـــل ان الطبقة الوسطى (البرجوازية)

---

(٤) Bottomore, Critic of Society, op. cit., pp. 42-43.

(٥) Ibid., pp. 43—51

والتى ارتبط بها علم الاجتماع منذ ظهـــوره ـــ تعرضت لأزمة عالمية هددت بتقلصها بعد مجموعة من التغيرات عقب الحرب العالمية الأولى ، ومع تولد الأزمة الاقتصادية (٦) حدثت عدة تغيرات تتمثل فيما يلى :

١ ـــ حطمت الحرب العالمية الأولى الدولة ـــ الأمة ـــ القديمة وخلقت أخرى جديدة وانتقصت من ثقة الجماهير فى جماعات الصفوة القديمة .

٢ ـــ هيأت لقيام الثورة الروسية وزادت من احتمـــال قيـــام الثورة فى غرب ووسط أوروبا مما خلق قلقا بين الطبقات الوسطى الأمريكية .

٣ ـــ نمو الفاشية فى ايطاليا ، والنازية فى المانيا مما هـــدد استقرار الطبقة الوسطى .

٤ ـــ خلقت أزمة ١٩٣٠ بطالة عامة بين جماهير الطبقة العاملة وتسببت فى حرمان جماعات الفلاحين الصغار ، وزادت من حدة القلق والتهـــديد الاقتصادى للطبقة الوسطى ، وعجلت من نمو دولـــة الرفاهية فى الولايات المتحدة .

وقد ادى تفكك البناء التحتى ـــ أيضا ـــ الى تفكك على مستوى الفكر ، اذ لم تكن هناك نظرية عامة فى المجتمع الأمريكى تستطيع أن تعيد للمجتمع توازنه أو يتعلق بها ن أضيروا بهذه الأزمة . وفى هذه الظروف لاقت الماركسية انتشارا واسعا فى المجتمع الأمريكى ، خاصة بعد النجاح الكبير الذى حققته فى روسيا فى هذه الفترة ، فقد ظهرت امام الأمريكيين على انها مجتمع تغلب على مشكلة الأزمات الاقتصادية عن طريق التخطيط الرشيد وانها تقـــدم للجماهير مستوى أعلى من الخدمات التى تقدم فى الأقطار الرأسمالية .

ويمكننا أن ندرك مدى المد الشيوعى الى الولايات المتحدة فى العقـــد الرابع من هذا القرن ؛ اذا عرفنا أن لنكولن ستيفنس Steffens قد ختم مذكراته عام ١٩٣١ ببعض الفصول عن مدح روسيا ، وأعلن فى احدى خطبه

---

(٦) Alvin Gouldner, Ihe Coming Crisis.., op. cit. p. 144

أن : « كل الطرق فى أيامنا هذه تؤدى الى موسكو » وذلك بالرغم من أنه لم يكن نابعا من رؤية ماركسية ، وانما من فرط اعجابه باستقرار التخطيط الاقتصادى (٧) .

غير أن الطبقة الوسطى سواء فى أمريكا أم فى سائر أوروبا كانت تخشى الامتداد الشيوعى وتعتبره خطرا عالميا فى الوقت الذى تواجـــه فيه بأزمة اقتصادية . هنا ظهر اتجاهان متعارضان : رؤية راديكالية متأثرة بالماركسية ترى أن الوقت مناسب للقيام بثورة . ورؤية محافظة ، ترى أن كل هذه الأحداث تهدد النظام العام الذى يجب المحافظة عليه مهما كانت الظروف .

وعلى هذا الأساس أصبحت مشكلة النظام العام — اذن — مشكلة ملحة ، ذلك لأن حلها قد يعيد للمجتمع توازنه ، ويبعد عنه خطر الامتداد الشيوعى . فمشكلة النظام هى الأسلوب المحافظ فى الحديث عن الظروف الاجتماعية عندما تصبح الصفوة القائمة عاجزة عن الحسم بطرق تقليدية ، وعندما تكون هناك أزمة تمس جوهر النظم الأساسية على مايقـــول « الفن جولدنر » (٨) .

ظهر عمل بارسونز الأول « بناء الفعل الاجتماعى » فى تلك الظروف البنائية والفكرية التى ولدت — مشـــكلة نظام — فى المجتمع .. كـــان بارسونز قد عاد من رحلة طويلة فى أوروبا اتصل فيها اتصالا وثيقـــا بالتراث الالمانى المثالى — خاصة آراء ماكس فيبر ، ومارشال ، وزمبارت وبالتـــراث الوضـــعى — كونت ودوركايم(٩) . وفى هـــذه الظروف التى

---

(٧) Bottomore, Critics of Society, op. cit., p. 95.

(٨) Alvin Gouldner, op. cit., p. 146

(٩) أعد بارسونز رسالة دكتوراه عن مفهوم الراسمالية فى نظريات ماكس فيبر ، وفيرنر ،وزمبارت . ولقد اهتم بارسونز فى مرحلة مبكرة من حياته بمؤلفات المفكر الاقتصادى النظرى « الفرد مارشال » ودرس مؤلفات دوركايم الى جانب دراسته فى مدرسة الاقتصاد العليا بجامعة لندن على يد هوبهاوس وجينزبيرج ، والانثروبولوجى مالينفسكى الـــذى اثار فيه اهتماما بالاتجاه الوظيفى .

عرضنا لها ، كان بارسونز اما أن يأخذ بالاتجاه الوضعي ، أو المثـالى ، او الماركسى . غير ان ظروف مشكلة النظام العام فى المجتمع وطبيعة تكوينه الفكرى ، جعلته يتخذ موقف الطبقة الوسطى التى ينتمى اليها .

ولقد فرض هذا الموقف على بارسونز ان يرفض الماركسية ، وان يتبنى وجهات النظر التى تعرضت لها بالنقد والتفنيد ــ أعنى بذلك المثالية الالمانية ، والوضعية الفرنسية . على انه لم يكن من الممكن تبنى وجهة نظر المثالية ــ كما تمثلت فى أعمال فيبر وزمبارت ــ فاذا كان كل منهما قد اتخذ موقفا جدليا من الماركسية ، الا انه كان موقفا ينم عن احترام للتفسير الماركسى للراسمالية . هذا فضلا عن ان كليهما قد اتخذ موقفا عدائيـا تشاؤميا تجاه الراسمالية بما تتميز بـه من اندفـاع نحو الترشـيد والبيروقراطية العاتية . وبناء على ذلك لم يطور بارسونز كل آراء ماكس فيبر وزمبارت ، وانما طور فقط الآراء التى اتجهت نحو نقد الماركسية عند كل منهما ، خاصة آراءهما فيما يتعلق بالدور العام الذى يمكن أن تلعبه القيم فى الحياة الاقتصادية الاجتماعية (١٠) ، وفى تشكيل الفعل الاجتماعى لقد رفض بارسونز موقفهما من الراسمالية الذى يشبه موقف ماركس ــ فلم يكن بارسونز يكن موقفا تشاؤميا ازاء الراسمالية ــ وقبل موقفهما النقدى من الماركسية .

لم يكن من الممكن الاندفاع نحو الوضعية ، فتلك ــ الأخيرة ــ كانت مشبعة بأطر حتمية وتطورية ، ولكنها ــ خاصـة وضعية دوركايم ــ اهتمت بالعنصر القيمى فى المجتمع فالقيم ، كما تمثلت فى الضمير الجمعى والتربية الأخلاقية عند دوركايم ، تضبط سلوك الأفراد ، بـل وتمارس عليهم قهرا .. هنا نجد بارسونز ــ كما فعـل مع فيبر ــ يطور موقف دوركايم من القيم فيعارض رأى دوركايم فى الدور القهرى للقيم ، ويضفى عليها موقفا فيبريا حيث تصبح القيم مولدة للفعل ومحددة له . « فالقيم عند دوركايم من خارج الفعل تقهره وتضبط مساره ، أما عنـد بارسونز

---

(١٠) Gouldner, The Coming Crisis ··· , op. cit., p. 181

فهى من الخارج والداخل ، تدفعة وتحركة نحو التطابق والقيم الخارجية السائدة فى النسق(١١) .

ومن خلال التوفيق بين المثالية ، والوضعية عن طريق تبنى وجهة نظر الأولى فى القيم ، وتطوير وجهة نظر الثانية ، قدم بارسونز نظرية الطوعية التى استغرقت كل عناصر الفعل (الفاعل ، وأهدافه ، ووسائله لتحقيق هذه الأهداف) تحت عنصر واحد هو المعايير باعتبارها المحدد الوحيد للفعل الاجتماعى (١٢) ، وهذا الذى يدعونا أن نطلق عليه « الحل المعيارى لمشكلة النظام » حيث لعبت القيم دورا كبيرا فى كل مشروعة النظرى .

ثانيا : الحوار مع هوبز والحل المعيارى لمشكلة النظام

ربما كان تالكوت بارسونز أهم علماء الاجتماع الذين دخلوا فى حوار صريح مع هوبز صاحب « مشكلة النظام العام » لأنه كان يدرك تماما أن علم الاجتماع يجب أن يتخذ من هذه المشكلة نقطة انطلاق له (١٣) . ولم ينظر بارسونز الى مشكلة النظام على أنها مشكلة فلسفية ولكنها مشكلة امبيريقية لها فاعليتها فى المجتمع المعاصر . فقد كان اكثر احساسا — على خلاف ما يذهب نقاده — بعدم استقرار المجتمع المعاصر (١٤) ، ذلك لأن

---

(١١) على ابو ليلة ، **الأسس النظرية والمنهجية للنظرية الوظيفية فى علم الاجتماع** ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كليه الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٣٤٠ .

(١٢) Rex, Discoverring Sociology, op. cit., p. 189

(١٣) ربما كان الحوار الذى دخل فيه بارسونز مع هوبز هو السبب الذى جعل مؤرخى السوسيولجى يحاولون الربط بين التفكير النظرى ومشكلة النظام .

تركيزه على مشكلة النظام يعنى انه كان يستوعب الامتداد الحقيقى للازمة وانه ادرك أن هذه الأزمة تتضمن شيئا أكثر من ابعادها الاقتصادية ، وانها تتضمن مشكلة اكثر عمومية واكثر شمولا » (١٥) .

يرى بارسونز أن النسق النظرى الذى قدمه هوبز هو حالة متطرفة من النظرية النفعية ، ذلك لأن اساس الفعل الاجتماعى يكمن فى العواطف واذا كان الأفراد يسلكون بطريقة رشيدة ، فانهم يسخرون عقولهم لخدمة الاهداف التى تمليها عليهم عواطفهم ، والتى تكون فى الكثير من الأحيان محاولة لتحقيق السيطرة على الآخرين .

وفى هذه الحالة فان انسب الوسائل دائما ماتكون العنف والخداع وهو الذى يؤدى الى تحويل المجتمع الى حالة من الحرب ، وهذا هو جوهر مشكلة النظام .. ولقد حل هوبز هذه المشكلة من خلال « العقد الاجتماعى » الذى يعتبر توسيعا لمفهوم الرشد الى درجة يدرك معها الفاعلون الموقف ككل بدلا من تحقيق اهدافهم فى ضوء موقفهم الراهن ، ومن ثم يتخذون الفعل الضرورى الذى يستبعد العنف والخداع ، ويحقق الأمن على حساب المزايا التى يمكن أن تتحقق من استعمالها — العنف والخداع — فى المستقبل (١٦) . ورغم ان بارسونز لم يوافق على هذا الحل النفعى ، الا أن كلماته تكشف عن اعجاب بآراء هوبز النفعية « لقد راى هوبز المشكلة بوضوح بصورة لم يسبقه فيها أحد ، ولاتزال عباراته عن هذه المشكلة صادقة حتى اليوم » (١٧) غير انه أضاف قائلا ،

---

(١٤) كان هؤلاء النقاد يعتبرون ان بارسونز — وما زال هذا الراى سائد الى اليوم — كان منعزلا عن المشاكل القائمة فى عصره ، وأنه لم يحس مشكلات الحياة اليومية ، الفقر ، الحرب ، التفرقة العنصرية ، التخلف .

(١٥) Gouldner, The Coming Crisis, op. cit., pp. 146—147

(١٦) Parsons, Structure of Social Action, Free Press, 1949, First Published, 1937, pp. 89—93.

(١٧) Ibid., p. 94

« ومن الجوهرى أن حلا حاسما لهذه المشكلة لايمكن الوصول اليه على أساس نفعى بحت ، ولكنه يجب أن يتضمن اما رجعة الى الوضعية ، أو تجاهلا للاطار الوضعى تماما » (١٨) .

فرق بارسونز بين نوعين من النظام العام : النظام المعيارى العام Normative والنظام الواقعى Factual يتمثل النظام العام المعيارى فى ارتباطه بمجموعة من المعايير ، أو العناصر المعيارية ، سواء كانت غايات ، أو اى معايير اخرى . أما النظام الواقعى ، فيتمثل فى الحالة الوقعية التى يمكن أن تخضع للقانون العلمى فى التحليل . وبالرغم من امكانية اخفاق اى نظام معيارى ، وترديه الى حالة من الفوضى تحت ظروف معينة فانه تبقى حقيقة اساسية تتمثل فى أن العناصر المعيارية ضرورية للمحافظة على اى نظام واقعى ، فالنظام الاجتماعى العام هو دائما نظام واقعى مدام قابلا للتحليل العلمى . غير أنه لا يمكن أن يحافظ على استقراره دون توظيف فعال لبعض العناصر المعيارية(١٩) .

من هذا المنطلق اكتسبت المعايير أهمية مطلقة فى حل بارسونز لمشكلة النظام ، فأفعال الفرد ليست عشوائية أو محكومة بالعواطف ولكنها على العكس من ذلك تماما ، اذ نجدها تكشف عن قدر من النظام بحيث لاتتردى فى حالة من الحرب ، أو تختلف اختلافا كبيرا بحيث لايمكن التنبؤ بهـا ، وتوجد هاتان الخاصتان — فقط — اذا ماشارك أعضاء المجتمع فى مجموعة من القيم المطلقة التى تحدد أهدافهم ووسائلهم لتحقيق هـذه الأهـداف . وتضفى هذه القيم قدرا من النظام والمعنى على سلوك الفرد ، ومن ثم تكبح الصراع والفوضى فى المجتمع (٢٠) .

ذكرت آنفا أن بارسونز قد اكتشف هذه العناصر المعيارية فى اعمال ماكس فيبر وزمبارت ، ودوركايم ، وانه اتخذها اساسا لمناوأة الماركسية

---

(١٨) Ibid., p. 94

(١٩) Ibid., p. 91

(٢٠) Percy Cohen, Modern Social Theory, op. cit., p. 105

وتوصف نظرية بارسونز المبكرة فى القيم والمعـــايير بأنها نظرية طوعية . وهى كذلك لأنها تعبر عن عدائه للحتمية وتترك جانبا كبيرا لحرية الارادة للفاعل فى تحديد أهدافه ووسائله فى ضوء المعايير التى تعتبر محركات غير منظورة وثابتة للسلوك .

واذا كانت القيم المطلقة منفصـــلة عن العنصر الطوعى ، أو حرية الارادة الا أن كلا منهما مرتبط بالآخر ، ذلك لأن ادراك المعايير يعتمد على جهد الأفراد الفاعلين ، والظروف التى يسلكون فيها . وتعبر العـــلاقة الفعالة بين المعايير والأفراد عن الجانب الخلاق أو الطوعى فى السلوك . فالمعايير لاتكبح الأفراد من الخارج بل يتقبلونها عن ارادة وحرية ، فالأفراد يعتبرون المعـــايير شيئا مرغوبا فيه ، ومن ثم يدركون أهميتها ويوجهون سلوكهم فى ضوئها (٢١) . وهذا هو جوهر الخلاف بينه وبين دوركايم . كما اشرت فى موضع سابق . فدوركايم لم يفرق بين قوة المعايير وبـــين قبولها الطوعى من جانب الأفراد ، فالفاعل فى نظر بارسونز — يتوحـــد لراديا مع هذه المعايير ويقبلها كجزء من تكوينه . ومن هذ المنطلق يعتبر الفعل الاجتماعى فعلا ذا معنى ذاتى وطوعى فى نفس الوقت .

ولنحاول الآن ان نتتبع هذه النظرية فى شىء من التفصيل ، فنعرض

---

(٢١) Parsons, Structure of Social Action, op. cit., p. 81
تجدر الاشارة الى أن بارسونز لم يكن يركز على العناصر المعيارية ولكنه أدرك أهميتها فقط واعتبرها مرتبطة بالعناصر الأخرى . غير أن هـــذه الأهمية فى حد ذاتها يمكن أن تجعله يتردى فى هوة الحتمية التى حاول أن يبتعد عنها . ولقد أكد بارسونز حتميته فى كتابه : **المجتمعـــات : منظورات تطورية** . ومقارنة حيث يذهب الى أننا لايمكن أن نقبل نظرية تركز على العامل الواحد ويؤكد فى نفس الوقت أن ذلك لايحول دون الترتيب التدريجى للعوامل ويستنتج من هذا أن العنـــاصر المعيارية اكثر اهمية من العوامل المادية . انظر :

Parsons, Societies : **Evolutionary and Comparative Perspectives**, Engleood Chiffs. N.J., 1966.

للوحدات الاساسية للفعل كما رآها بارسونز فى هذه المرحلة من تفكيره والتى تتمثل فى : الهدف ، والموقف ، والفاعل ، والتوجيه القيمى ، تلك هى العناصر الاربعة للفعل الاجتماعى التى وصفها بارسونز والتى يطلق عليها فى حالة ترابطها « وحدة السلوك » Unit act حيث يتكون نسق التفاعل من جماع هذه الوحدات .

يقول بارسونز : « يمثل النسق المتكامل للفعل الرشيد نسيجا من وحدات السلوك وتظهر الغاية او الوسيلة — فقط — عندما يرتبط سلوك معين بغاية معينة خلال مجموعة من وحدات السلوك تؤدى اليها . ويمكن ان تعتبر الغاية الحالية وسائل لغايات مختلفة . ومن هنا تخرج الخيوط فى الانتشار فى اتجاهات مختلفة (٢٢) . وتكشف هذه الكلمات عن الارتباط بين وحدات السلوك ، فهذه الوحدات مترابطة واذا حدث اى تغير فى اى منها يؤثر بالضرورة على الأخريات . ولا تسير العلاقة بينها فى اتجاه واحد ، ولكنها تسير فى اتجاهات متبادلة بحيث يكون التأثير انعكاسيا دائما والذى يحفظ التوازن داخل النسق ، ويحقق التبادل بين وحدات الفعل هى القيم بطبيعة الحال ، فوحدات الفعل ، ووحدات السلوك التى تتفرع منها كل شبكة الأفعال المترابطة فى المجتمع تسبح كلها فى بحر من القيم والمعايير ذات المستويات المختلفة . ونستطيع ان ندرك من الشكل التالى مدى هذا الترابط بين وحدات السلوك ودور القيم فى هذا الترابط (٢٣).

---

(٢٢) Parsons, Structure of Social Action, op. cit., p. 740

(٢٣) المصدر : Dick Atkinson, Orthodox Consensus and Radical Alternative,, Heinmann, London, 1971, p. 12

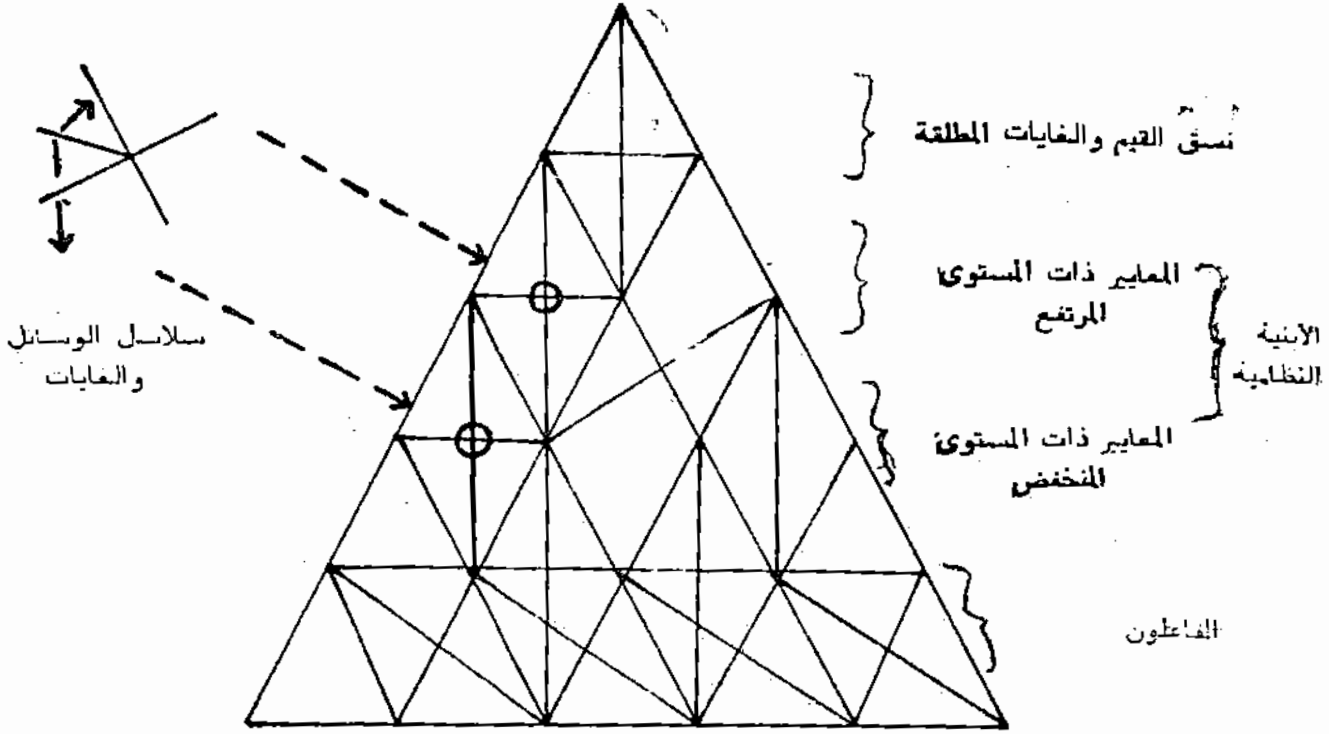

ترابط وحدات السلوك

تتضمن وحدة السلوك العناصر الآتية :

الهدف (القيم) ـ المعايير ـ الظروف ـ الفاعل ـ السوقت

ويمكن لنا أن نقول أنه اذا كان كل عنصر من عناصر النسق مترابط مع الآخر تمام الترابط ، يتأثر ويؤثر فى العناصر الأخرى ، فان الأفراد الذين يقفون وراء كل سلوك يصبحون « لعب » للميكانيزمات التى يفرضها التكيف مع هذا النسق ، وبذلك يكون بارسونز قد قدم الطوعية فى السلوك باليد اليمنى وسحبها باليد اليسرى عندما اكد على ضرورة الترابط بين وحدات السلوك المختلفة داخل المجتمع ، والى جانب ذلك عندما أبرز دور القيم فى تدعيم هذا الترابط . واذا كانت هذه الحقيقة غير واضحة فى أعمال بارسونز الأولى ، فقد اتضحت بجلاء فى أعماله التالية خاصة كتابه الشهير « النسق الاجتماعى » الذى تخلى فيه عن أى فكرة طوعية ، عندما لم يعتبر القيم مطلقة وانما يمكن تحديدها من خلال توليفات محددة من متغيرات النمط الخمسة .

والواقع أن بارسونز قد وضع أساس مشروعه النظرى فى هذا العمل المبكر « بناء الفعل الاجتماعى » من خلال مناقشة نقدية مستفيضة لأعمال مارشال ، وباريتو ، وماكس فيبر(٢٤) ، ومن هذه المناقشة استطاع بارسونز أن يستنبط ويطور هيكلا مميزا من المفاهيم يجب أن يقوم عليه علم دراسة المجتمع . ولقد بنى عليه كل افكاره فيما بعد فى كتبه الرئيسية .

ثالثا : نحو مزيد من التكامل ، نظرية النسق :

ما اشبه بارسونز بالنسق الاجتماعى الذى يحقق دائما توازنا ديناميا مع كل جديد يهدده بالتغير ، فاذا كانت نظريته فى الثلاثينيات اهتمت أساسا

---

(٢٤) نقد بارسونز لاعماله بعض المفكرين الآخرين من أمثال سان سيمون وهربرت سبنسر ، والمفكرين المحافظين من أمثال بونال ، ومستر ، وتوكفيل . ولقد اعترف بارسونز فى مقدمته للطبعة الشعبية من كتاب « بناء الفعل الاجتماعى » بهذا الاهمال وان كان لم يعترف بأن تفسيراته لا تزال بحاجة الى مراجعة ، كما كتب فى مقدمة الطبعة الثانية من هذا الكتاب أنه اسهاما أوليا فى علم اجتماع منظم وليس تاريخا ، انظر :
Bottomore, **Sociology as Social Criticism**, p. 31.

بحل مشكلة النظام التى تهدد المجتمع ، فان نظريته بعد ذلك استجابت استجابة تلاؤمية لظروف المجتمع الذى حل مشكلة النظام بالفعل . فالمجتمع الآن فيما بعد الحرب العالمية الثانية قد حقق قدراً كبيرا من الاستقرار ، وبدأت الدولة تمارس عملها فى ظل وحدة قومية ، واستعادت الطبقة العاملة ونقاباتها تحقق مزيدا من التكامل مع المجتمع . ولقد أدى كل هذا الى اختفاء الاحساس بأن النظام العام مهدد بالانهيار ، كما حقق النظام التكامل بين عناصره وحل مشكلة النظام التى تهدده ، ومن ثم لم يعد فى حاجة الى دوافع اخلاقية(٢٥) . وهنا نجد بارسونز يطور نظريته بحيث تسعى الى تحقيق مزيد من التكامل فى مجتمع متكامل ، فهو ينطلق من وحدة العالم أو وحدة المجتمع ثم يكون تركيبات وتصنيفات من المفاهيم لا تترك عنصرا من عناصر المجتمع دون أن تلامسه — ما عدا الصراع بطبيعة الحال . ويذهب جولدنر الى أن تلال المفاهيم التى أتى بها بارسونز تعبر عن نظرته الى وحدة العالم ، فالمفاهيم عنده ليست أداة علمية مفيدة فى عامية البحث الاجتماعى ، بقدر ما هى غاية فى حد ذاتها . فبناؤها الغامض يعبر عن رؤية بارسونز للعالم الاجتماعى على انه كل . انها تهدف الى تغطية العالم وشموله لا الكشف عنه وتفسيره ، وهى تحيل أجزاء العالم الاجتماعى الى كل عندما تتخطى دراسة الصراعات والتوترات داخله (٢٦) .

ان بارسونز خلال نظرته الى العالم على أنه كل انما ينطلق من فكرة النسق الاجتماعى . فالمجتمع ما هو الا « كل » يتكون من نظم متفاعلة ، تتميز بقدر من الاستقرار والاتساق ، وتفرض على الأفراد مجموعة من ميكانيزمات الضبط الاجتماعى التى تحافظ على وحدة المجتمع . ومع هذه الرؤية النسقية لا يفتر دور القيم أو يسلم الزمام لغيره من العوامل — على العكس من ذلك تماما ، تلعب القيم والمعايير دورا كبيرا فى تحقيق التكامل بين عناصر المجتمع ونظمه ، وتشكل مصدرا أساسيا للاستقرار داخله . ولهذا السبب فان نظرية بارسونز فى الخمسينيات توصف بأنها نظرية فى النسق ، بالرغم من أنها تقوم على نفس الأسس التى أرساها فى الثلاثينات ، والخاصة

---

(٢٥) Alvin Gouldner, The Coming Crisis, op. cit., p. 142.

(٢٦) Ibid., pp. 208—209

بالفعل الاجتماعى وعناصر عملية التفاعل . فالفعل الاجتماعى الموجه نحو تحقيق هدف معين هو نقطة الانطلاق فى نظرية النسق (٢٧) .

ولقد أطلق بارسونز على عملية السعى المستمر نحو تحقيق الأهداف « نسق استعداد الحاجات » ، أو الدافعية Motivation ولها ثلاثة جوانب : الجانب الانفعالى Cathectic والجانب المعرفى Cognitive والجانب التقويمى Evaluative غير أن الفاعل لا يتصرف من محض دافعيته ، بل أن هناك جانبا آخر يعمل كجانب توجيهى ، أو تقويمى أطلق عليه بارسونز : « التوجيه القيمى Value Orientation» فالقيم تشكل مرجعا اجتماعيا وهى البؤرة التى يتكون حولها النسق الثقافى ككل . واذا كانت الدافعية تكشف عن تباين ثلاثى بين الجوانب الانفعالية والمعرفية ، والتقويمية ، فان التوجيه القيمى يكشف عن تباين ثلاثى فى ضوء العلاقات الوظيفية للفعل عند الفرد ، فهناك المستويات المعرفية Cognitive والمستويات التذوقية Appreciative ثم المستويات الأخلاقية Moral من التوجيه القيمى(٢٨) . واذا كانت التوجيهات الدافعية تمثل أطارا لتحليل مجموعة من المشاكل التى يهتم بها الفاعل ، فان التوجيهات القيمية تمثل الحلول المحتملة لهذه المشاكل . ويمكن من

---

(٢٧) الفعل الاجتماعى هو توجيه فاعل أو أكثر نحو موقف معين ، يتضمن فاعلين آخرين ويتم الفعل الاجتماعى داخل موقف اجتماعى ، ويتكون الموقف من مجموعة من الموضوعات ذات توجيه معين objects of orientation وقسمها بارسونز الى موضوعات فيزيقية ، واجتماعية ، وثقافية .

(٢٨) هذان العنصران : التوجيه الدافعى ، والتوجيه القيمى هما نفس العنصرين اللذين كونا نظرية بارسونز الطوعية ، فالدافعية هنا تقابل ارادة الفاعل وسلوكه الطوعى ، والتوجيه القيمى يقابل المعايير التى يلتزم بها الفرد التزاما طوعيا ، والفرق أن بارسونز تقدم ليسير اغوار هذه المستويات وليربطها بالنسق الاجتماعى ككل ، بل وايضا بنسق الشخصية .

الأولى بناء نظرية مستقلة فى الشخصية ، كما يمكن من خلال الثانية بناء نظرية مستقلة فى الثقافة (٢٩) .

وتعتبر عملية التفاعل الاجتماعى بؤرة النسق الاجتماعى أو صورته المصغرة لأن اى وحدة تفاعل تحوى العناصر الأساسية للنسق ، وأعنى المشاركة فى المعتقدات والاحساسات والقيم ، ووجود التقييم الفنى ، والجمالى ، والأخلاقى . ويتكون التفاعل الإجتماعى عندما يضع كل فاعل فى اثناء سعيه لتحقيق أهدافه — فى اعتباره أهداف الآخرين ويكون توقعات عن سلوكهم ، ويتصرف الآخرون بنفس الطريقة ، وعلى المدى الطويل تصبح هذه التوقعات معايير تحدد ظروف التفاعل (٣٠) .

وتحتوى بناء النسق الاجتماعى على مجموعة من المكونات البنائية تتمثل فيما يلى : السلوك : الذى يصبح وحدة داخل النسق عندما يكون جزءا من عملية تفاعل بين صاحبه والآخرين ، ثم المكانة Status والدور Role (٣١) . وهما يعكسان مشاركة الفاعل فى نسق التفاعل وما يرتبط بهذه المشاركة بين وضع اجتماعى . اما ثالث هذه المكونات فهو الفاعل نفسه وهو الذى يشكل المكانة ويلعب الدور ولدينا اخيرا الجماعة ويمكن النظر اليها على انها فاعل وموضوع فى نفس الوقت(٣٢) .

ولقد اشرنا آنفا الى ان بارسونز فى هذه المرحلة من تفكيره قد قيد التفاعل

---

(٢٩) Parsons, **Social System,** The Press, Glencoe, Illinois, Copyright, 1951, pp. 3—91.

(٣٠) تغذى عملية التفاعل هذه مجموعة من المصالح المستثمرة الى جانب رغبة الفاعل فى أن يحظى سلوكه بالقبول من جانب الجماعة . وهكذا تحافظ عملية التفاعل على استقرار العلاقات بين الأفراد وهى دائما تفرز قيما ومعايير جديدة تكسبها مزيدا من الاستمرار .

(٣١) عرف بارسونز المكانة بأنها مركز الفاعل أو موقفه دخل النسق ، أما الدور فهو مايفعله الشخص أو يقوم به فى علاقته بالآخرين .

(٣٢) J. Parsons, **Social System,** op. cit., pp. 24—26.

بحدود معينة عندما حدد بدائل أو متغيرات للتوجيه القيمى تقدم للفاعل كل الحلول المحتملة خلال التفاعل . ولما كانت هذه البدائل تفرض دائما مشكلة اختيار حددها بارسونز فى شكل معضلات تحوى كل واحدة زوجا من المتغيرات (٣٣) .

تنحصر المعضلة الأولى فى اختيار الفاعل بين السلوك الوجدانى والسلوك المحايد وجدانيا ، فالسلوك الأول يتيح الاشباع المباشر لحاجة الفاعل ، أما السلوك الثانى فيراعى أهداف النظام ككل . أما المعضلة الثانية فتتمثل فى اختيار الفاعل بين السلوك القائم على التوجيه الذاتى ، أو السلوك القائم على التوجيه الجماعى : ويتيح السلوك الأول للفاعل تحقيق مصالحه الذاتية فقط ، أما الثانى فيتيح له تحقيق مصالح الجماعة . وتتضح المعضلة الثالثة فى اختيار الفاعل بين السلوك القائم على العمومية أو السلوك القائم على الخصوصية (Universalism - Particularism) الأول يتيح للفاعل أن يتبنى مستويات للقيمة قائمة على العمومية (القيم المعرفية) بحيث يعامل الأشخاص جميعهم وفق قواعد عامة بصرف النظر عن ارتباطه بهم . والثانى : يتيح مستويات للقيمة على درجة كبيرة من التخصيص (القيم التذوقية والأخلاقية) بحيث يعامل الأفراد من خلال مدى ارتباطة بهم أو من خلال مراكزهم الاجتماعية . أما المعضلة الرابعة فتتمثل فى اختيار الفاعل بين السلوك القائم على العزو أو القائم على الانجاز (Quality - Performance) الأول : يتيح للفاعل التصرف وفق الخصائص الذاتية للموضوع ، أما الثانى فيتيح له التصرف حسب قدرة هذا الموضوع على الأداء أو الانجاز . وأخيرا تتمثل المعضلة الخامسة فى اختيار الفاعل بين السلوك القائم على التخصص أو السلوك القائم على الانتشار Specificity city - Diffusness الأول يتيح النظر الى الدور فى ضوء حدود مرسومة . والثانى لا يفرض اى حدود أو التزامات على هذا الدور(٣٤) .

---

(٣٣) يعتبر البعض أن هذه الأزواج من المتغيرات ماهى الا امتداد لثنائية توينز عن المجتمع والمجتمع المحلى ، والفرق بينهما هو قدرة هذه المتغيرات على تقديم بدائل أكثر رحابة من ثنائية توينز ، انظر :
John Pex. Discovering Sociology, op. cit., p. 35

(٣٤) Parsons, Social System, op. cit., pp. 60—67.

ولقد استخدم بارسونز هذه المتغيرات للربط بين الفعل الاجتماعى وبين النسق الاجتماعى . فالقيم والمعايير والأنماط الثقافية فى النسق الاجتماعى هى التى تقدم الحلول لهذه المعضلات . هنا تختفى فكرة الارادة الطوعية أو فكرة الاختيار . فالفاعل فى الحقيقة لايختار من بين هذه البدائل وانما يتلقى الحل « جاهزا » من النسق ، بل ان بارسونز قد حاول أن يقيم « توليفات » بين هذه المتغيرات لكى يحدد كل البدائل الممكنة فى اى نسق اجتماعى . وتوصل الى اثنتين وثلاثين « توليفة » . وقد فعل بارسونز ذلك لثلاثة أهداف :

الهدف الأول : تقييد النظرة الطوعية التى ركز عليها فى كتاب « بناء الفعل الاجتماعى » صحيح أن عملية التفاعل فى نظرية النسق تخلق التزاما طوعيا بالقيم والمعايير ، ولكن عملية التفاعل لاتستطيع أن تحيد عن اثنين وثلاثين بديلا هى كل الممكن فى علاقات التفاعل فى جميع المجتمعات .

الهدف الثانى : اقتناع بارسونز بهذه المتغيرات يستطيع أن يقدم صورة للتباين النسقى والمجتمعى بحيث تصبح نظريته عالمية (٣٥) . حقيقة ان البدائل كثيرة ولكن على كثرتها فانها تكشف عن ثنائية ، وذلك من حيث أن كل بديل هو فى النهاية زوج من المتغيرات فى الوقت الذى يمكن أن يكشف مجتمع واحد عن جميع البدائل ، تلك التى يمكن ان تتغير حلولها عبر الوقت والمكان داخل المجتمع الواحد .

الهدف الثالث : محاولة بارسونز ابراز نمط المجتمع الأمريكى على انه النمط المثالى ، فقد حدده على انه النمط العمومى المنجز ، بينما حدد أنماط بعض المجتمعات الأخرى فى ضوء توليفات اخرى . فعلى سبيل المثال : النمط العمومى القائم على الخصائص الذاتية والغزو فى المانيا ، والنمط القائم على الخصوصية والانجاز فى الصين ، والنمط القائم على الخصوصية والغزو فى اسبانيا (٣٦) .

---

(٣٥) على أساس أن متغيرات النمط تقفز بالتحليل من مستوى المجتمع الواحد الى التحليل المقارن للمجتمعات كلها حسب البدائل التى تطرحها .

(٣٦) Ibid., pp. 182–200

غير أن الأهم من ذلك كله هو أن نطرح قضية التكامل النسقى فى فكر بارسونز عن نظرية النسق ، فهذا يخدم قضية بحثنا اذا كنا نسعى الى الربط بين فكرة النظام الاجتماعى والنظرية السوسيولوجية ، فبارسونز لايتصور النسق الاجتماعى الا تصورا كليا يولد داخل النسق عمليات مستمرة لتحقيق التكامل والتوازن ، وطرد مستمر لمصادر التوتر أو التغير أو الصراع(٣٧) . فهناك تكامل بين التوجيهات الدافعية والتوجيهات القيمية كما أن هناك تكاملا يظهر من الاعتماد المتبادل بين النظم الفرعية للنسق الاجتماعى وعملية التشكل النظامى المستمر لهذه النظم ، ثم هناك التوازن الدينامى الذى يحتل النسق بؤرة تفاعل تحافظ على جدواها باستمرار ، ثم هناك أخيرا المستلزمات الوظيفية للنسق وميكانيزمات الضبط الاجتماعى داخله . وسوف نتناول هذه العناصر بالتفصيل على النحو التالى :

١ ــ تضافر الدافعية مع التوجيهات القيمية : مستوى أول للتكامل :

آثار بارسونز ــ فى أثناء مناقشته لقضية تكامل التوجيهات الحافزية مع التوجيهات القيمية ــ مشكلة النظام الهوبزية . فنحن نسلم بأن النسق الاجتماعى نسق توجهه المعايير التى تتولد من خلال التوقعات المتبادلة فى عملية التفاعل ، وان عملية التفاعل لها طبيعة مزدوجة لأنها تحاول التوفيق بين الدافعية والتوجيه القيمى . ولكن من الممكن أن تظهر التوقعات المتبادلة على ان تلك الطبيعة المزدوجة لعملية التفاعل لها جانبان : النظام داخل الانساق الرمزية التى تجعل عملية التواصل ممكنة ، والنظام فى العلاقة التبادلية بين التوجيه الدافعى والجوانب المعيارية للتوقعات . وهذه هى صميم مشكلة هوبز الشهيرة . ويمكن حل هذه المشكلة عندما يتحقق التكامل بين دافعية الفاعلين والمستويات الثقافية والمعيارية السائدة ، وهو تكامل يتحقق من خلال الالتزام بمعايير أو مستويات عامة تدعمها المصالح المستثمرة

---

(٣٧) فالتصور الكلى للنسق تصور أولى فى فكر بارسونز ، وهى قضية يسلم بها عند الدخول فى تحليلات فرعية لعناصره المكونة ، ولقد دفعه هذا الى أن يقدم تحليلا دقيقا لعناصر النسق الاجتماعى ودرجة تخصصها واستقلالها فى محاولة لتوحيد الكل فى واحد .

للفاعلين . وقد حدد بارسونز هذه المستويات وفق ثلاثة أبعاد أساسية : الامتثال فى مقابل الانحراف Conformity - Deviation والملاءمة فى مقابل عدم الملاءمة Favourable - Unfavourable والاشباع فى مقابل الحرمان الحرمان Gratification - Deprivation (٣٨) .

وتفرض هذه الأبعاد على الفاعلين — فى موقف التفاعل — الاختيار بين أطرافها الأساسية . ولكى تتحقق المصالح المتبادلة فان الفاعلين لابد أن يختاروا الطرف الأول من كل بعد ، أعنى بذلك : الامتثال ، والملاءمة ، والاشباع . وهى المستويات التى تحقق التكامل بين الدافعية والتوجيهات القيمية من خلال استدماج الفاعلين ومشاركتهم فيها (٣٩) . واذا ما اختار الفاعل اى بعد منها فانه لابد أن يختار الأبعاد الأخرى ، فاذا كان ممثلا فلابد أن يكون سلوكه ملائما ولابد أن يشبع حاجاته فى نفس الوقت الذى يشجب فيه العناصر الأخرى من هذه الأبعاد .

ولقد استخدم بارسونز لتحليل هذا المستوى من التكامل المعضلة الخامسة من متغيرات النمط التى تفاضل بين التوجيه الذاتى والتوجيه الجمعى . فالنسق يكشف عن التكامل عندما يحدد أعضاؤه أفعالهم فى ضوء التوجيه الجمعى . فالفرد الذى يوفق بين دافعيته وبين المستويات الجمعية هو فرد يتصرف فى مصلحة النظام وعكسه تماما من يتصرف فى ضوء دافعيته فقط ، انه يضع أمام الفرد سؤالا فى غاية الحرج : هل أنت مع النظام او ضده ؟ .

والواقع أن هذا التكامل بين التوجيهات الدافعية والتوجيهات القيمية يعبر — اذا تحقق — عن تكامل النسق ككل . . فقد نوهت آنفا الى أن عملية التفاعل هى بؤرة النسق او صورته المصغرة . وتتم عملية التفاعل من خلال التبادل بين الدافعية والتوجيهات القيمية ، فاذا تحقق هذا التكامل على مستوى

---

(٣٨) Parsons, Social System, op. cit., pp. 37—38

(٣٩) فاستدماج القيم يؤثر على أعمق طبقات الدافعية على مايقول تالكوت بارسونز ويجعلها تسعى دائما الى أن تحقق توقعات الدور .

التفاعل بين فاعلين ، فان ذلك يعنى أن النسق ككل سوف يحقق فى النهاية تكاملا كليا . واذا حلت مشكلة النظام على مستوى الفرد فانها سوف تحل على مستوى المجتمع ككل ، والعكس بالعكس . وربما هذا هو الذى دفع جولدنر الى القول بأن بارسونز قد ركز على التكامل على مستوى التفاعل ، واعتبر ذلك الأخير مفهوما نوويا للنسق ، لأن ذلك يتفق ومزاج الأمريكيين ، فالمعروف أنه انطلق فى تحليله للتفاعل من الفرد ، ولم يول الجماعة أهمية كبيرة — أسماها Collectivity (على عكس دوركايم) انه دائما يقدم الفرد فى دراسة التفاعل (٤٠) . وذلك لأن المجتمع الأمريكى رأسمالى قائم على الفردية وتنتشر فيه قيم النجاح المادى (٤١) .

٢ — التشكل النظامى المستمر : مستوى ثان للتكامل :

من العلميات التى تحقق درجة عالية من التكامل داخل النسق ما اسماه بارسونز بالتشكل النظامى (أو التكون المستمر للنظام) Institutionalization لتوقعات الدور داخل النسق الاجتماعى . وتعنى هذه العملية صياغة الأدوار فى تكوينات Constellation يطلق عليها بارسونز النظم الاجتماعية . وتختلف الأدوار فى درجة تشكلها النظامى : فدور الشخص الذى يتدخل لفض النزاع بين صديقين يعتبر اقل تشكلا من دور المحكم فى النزاعات الصناعية ، وذلك الأخير اقل تشكلا من دور القاضى . وتعتمد درجة التشكل على الوقت وطبيعة النشاط .

وتعنى الدرجة العالية من التشكل النظامى أن الفرصة التى تترك للأفراد فى انجاز الدور أو تحديده فرصة ضيقة جدا ، فالأبنية البيروقراطية تعد ابنية على درجة عالية جدا من التشكل النظامى ، وذلك لأنها تتضمن ادوارا

---

(٤٠) Gouedner, The Coming Crisis, op. cit., p. 212

(٤١) Robert Merton, «Social Structure and Anomie», in : Merton, Social Sructture and Social Thecry, op. cit.,

كثيرة يتداخل أداؤها بعضها مع الآخر . وفى نفس الوقت فان الأدوار الوالدية فى المجتمع الحضرى الحديث تعد أدوارا اقل تشكلا لأن أداءها يعتمد على عدد صغير من الأدوار . وتتباين عملية التشكل داخل النظام ذاته ، ففى التنظيم البيروقراطى — مثلا — نجد أن الأدوار التنظيمية أكثر تشكلا من الأدوار المنوط بها حل المشكلات التى تثار داخل التنظيم بين البيروقراطيين وعملائهم ، حيث تترك هذه الأدوار مفتوحة الى حد ما . وفى الأسرة التى تترك ادوارها مفتوحة الى حد ما ، نجد أن التحديد القانونى للمستويات ، والواجبات والامتيازات والحقوق يقدم الحلول للكثير من المشكلات اليومية (٤٢) .

ويمكن أن نستشف من تعريف بارسونز للنظام أن الذى يتشكل داخل النظم ليست الأدوار نفسها وانما التوقعات والمعايير ، وانماط القيم المرتبطة بها . فالنظام وحدة بنائية على درجة عالية من التنظيم ، وهى تتكون من مجموعة مترابطة من نماذج الادوار وعناصرها المكونة ، فعندما نتحدث عن نظام الملكية فى نسق اجتماعى معين فاننا نعنى عناصر الأدوار المرتبطة بتكامل توقعات الفاعل مع النماذج القيمية التى تحدد حقوق التملك والالتزامات المرتبطة بها . « والنظام بهذا المعنى يجب أن يتميز عن الجماعة Collectivity التى تعد نسقا من الأدوار المتفاعلة والمحددة . فالنظام يعتبر مركبا من العناصر المنمطة Patternal فى توقعات الدور والتى يمكن أن تنطبق على عدد غير محدود من الجماعات . وبهذا يمكن أن تكون الجماعة الواحدة بؤرة اهتمام كل النظم القائمة » (٤٣) . ونستخلص من هذا النص أن النظام يرتبط دائما باطار معيارى وقيمى أو ينتج عن توافق مجموعة من الأدوار مع مجموعة من التوجيهات المعيارية والقيمية . انه صورة وسطى للنسق الاجتماعى تقع بين صورته المصغرة — واعنى التفاعل — وصورته الكبرى — واعنى المجتمع ككل . وقد اكد بارسونز هذا عندما ذهب الى القول بان ظاهرة تشكل النظم هى ظاهرة تقييمية Evaluative او أنها اسلوب لتنظيم نسق الفعل ، وهى تتصل أساسا بالتوجيه القيمى داخل

---

(٤٢) Percy Cohen, Modern Social Theory, op. cit., p. 103

(٤٣) Parsons, Social System, op. cit., p. 41.

النسق (٤٤) . فالتشكل النظامى يضيف عنصرا جديدا الى التوجيهات القيمية الأولية للفاعلين مهمته الرئيسية تحقيق التكامل فى انساق الفعل (٤٥) .

وينتج عن عملية التشكل النظامى هذه ثلاثة مجموعات نظاميـــة تضم النظم التى يشتمل عليها المجتمع . المجموعة الأولى يطلق عليها بارســـونز النظم المنظمـــة للعلاقات Relational وهى تمثل بؤرة النســـق وتتشكل من خلال العلاقات التى ترتبط بأدوار ومكانات الأفراد الداخلين فى التفـــاعل . والمجموعـــة الثانية يطلق عليها النظم التنظيمية Regulative وهى النظم التى تضع حدودا لشرعية المصلحة الخاصة والوسائل والغايات المرتبطـــة بها . أما المجموعة الثالثة والأخيرة فيطلق عليها النظم الثقافيـــة وهى التى تحدد الالتزامات التى تفرض قبول الأنماط الثقافية وتضم المعتقدات الادراكية وأنساق الرموز التعبيرية والالتزامات الأخلاقية الخاصة (٤٦) .

وفى مكان آخر أطلق بارسونز على النوع الأول من النظم : النظم الموقفية أى التى ترتبط بتنظيم الأدوار فى بعض المواقف التى يوضع فيها الفـــرد أو النسق ومن أمثلتها نظم القرابة والنظم السياسية ، وأطلق على النوع الثانى النظم الآلية ومن أمثلتها النظم التكنولوجية الخاصة بالطب مثلا . أما الثالثة فأطلق عليها النظم التكاملية وهى التى تهتم بتنظيم العلاقـــات بـــين الأفراد وتجنبهم مظاهر الصراع وتذكى بينهم روح التعاون ومن أمثلتها نظم التدرج الاجتماعى والسلطة (٤٧) . وعلى أى حال فان تصنيف بارســـونز للنظم الأســـاسية فى المجتمع قد اختلف من مكان لآخر فى أعمـــاله على ما سنرى فيما بعد .

ويكشف التباين فى التشـــكل النظامى للأدوار أن الأدوار فى أى مجتمع يمكن وضعها على متصل يبدأ من أعلى درجات التشكل النظامى وينتهى بحالة

---

(٤٤) Ibid., p. 51

(٤٥) Ibid., p. 50

(٤٦) Ibid., pp. 51—52.

(٤٧) Parsons, Essays in Sociological Theory, The Free Press of Glencoe, London, 1949, pp. 231—232.

الانحراف عن المعايير أو الأنومى . وعملية التشكل النظامى عملية مستمرة ، فعندما تظهر معايير جديدة وتوقعات للدور جديدة ، وعندما تكتسب هذه المعايير اعترافا من المجتمع فانها ما تلبث أن تتشكل داخل النظم . وهنا يبرز دور هذه الظاهرة فى تحقيق التكامل . فهى الى جانب انها تضع خطوطا سميكة بين ماهو نظامى وما هو غير نظامى، اى بين ماهو شرعى وفى مصلحة الجماعة وما هو غير شرعى وفى غير مصلحة الجماعة . الى جانب ذلك تخلق فى النسق حالة مستمرة من امتصاص وتشرب كل جديد من المعايير . فضلا عن ذلك فان عملية التباين فى التشكل النظامى تخلق نوعا من الرقابة النظامية من النظم ذات الدرجة العالية من التشكل على النظم ذات الدرجة المنخفضة وتخلق تنافسا يجعل تلك الأخيرة تسعى دائما الى ان تكسب لنفسها مزيدا من التشكل النظامى ويتطلب منها ذلك أن تحسن الأداء وان تعمل دائما على السير على خط النظام .

٣ ــ الاعتماد المتبادل بين اجزاء النسق : مستوى ثالث للتكامل :

لا يدرك بارسونز معطيات الواقع الاجتماعى الا فى حالة من وجود نسقى بمعنى تواجدها فى حالة من الترابط البنائى القائم على أساس تبادل الاسهامات الوظيفية . ويؤكد هذا الترابط حيوية الوجود الواقعى لهذه المعطيات المتناثرة وتمنحها قدرتها على الدوام والاستمرار الوظيفى (٤٨) . ولقد اهتم بارسونز بفكرة الاعتماد المتبادل بين معطيات الواقع الاجتماعى من بداية كتابة « بناء الفعل الاجتماعى » فقد لاحظنا انه اذا كان قد اولى اهمية أولية للمعايير فانه كان يؤمن بالترابط النسقى بين اجزاء الواقع ، ذلك الترابط الذى يبرز دور كل عنصر من عناصر هذا الواقع . ولقد اهتم بارسونز بفكرة الترابط أو الاعتماد المتبادل هذه لأنه وقف دائما موقفا جدليا ضد نظريات الحتمية ، والماركسية بصفة خاصة . وقد فرض عليه هذا أن يولى اهتماما لكل عنصر من عناصر الواقع ، وأن يبرز دور هذا العنصر فى تحقيق التكامل من خلال ابراز علاقته واعتماده المتبادل مع بقية العناصر الأخرى .

---

(٤٨) على ابو ليلة ، الأسس المنهجية والنظرية .. ، **مرجع سابق** ، ص ٤٢٦ .

غير ان هناك سببا آخر لاهتمام بارسونز بالتساند النسقى بين عناصر المجتمع يتمثل فى اتخاذه « وحدة الكل » Oneness of the whole نقطة انطلاق فى كل نظرياته(٥٠) . فالنظرة الكلية سابقة عنده على أى تحليل امبيريقى للنسق لما لها من قوة تفسيرية ، فالعالم كل مترابط الأجزاء . ومهما كانت هذه الأجزاء أو العناصر كثيرة ومتداخلة فانها تصب فى النهاية فى « كل مترابط » . وربما تكون هذه النظرة هى التى دفعته الى أن يتبنى مفهوم النسق System ويجعله مفهوما محوريا فى نظرياته الى درجة انه اعتبره بديلا لكلمة المجتمع ، فالنسق على ما يذهب جولدنر هو مجموعة من العناصر او الأجزاء تكشف عن علاقات متبادلة بعضها بالبعض الآخر . وكل عنصر يجب أن يحقق درجة من الاستقلال ودرجة من الاعتماد على العناصر الأخرى فى نفس الوقت . ومن ثم يظهر داخل النسق ميل لأن يحافظ كل جزء فيه على حدوده ، وميل لأن يدمج هذه الأجزاء فى النسق ككل ويجعلها تتكامل معه(٥١) . ويشتمل مفهوم النسق بهذا المعنى على تحيز لفهم المجتمع على انه ثابت ومستقر يسعى دائما لدمج عناصره فى وحدة كلية . ومن هنا كانت اهمية مفهوم النسق فى فكر بارسونز بل والفكر الغربى بصفة عامة(٥٢) .

ويهمنا الآن أن نحلل الترابط والاعتماد المتبادل بين أجزاء النسق الاجتماعى فى فكر بارسونز بمزيد من التفصيل . سوف أنطلق فى هذا التحليل — وكما يفعل بارسونز فى كل تحليلاته — من نظرية الوظائف الأربعة Four-Function Theory للنسق والتى قدمها فى مقال افتتاحى فى كتاب « نظريات المجتمع » (٥٣) والتى مؤداها أن النسق يهدف دائما الى تحقيق أربعة وظائف رئيسية : المحافظة على النمط — Pattern maintainance والتكامل integration وتحقيق الهدف goal attain ment ثم التكيف adaptation فهذه الوظائف اذا كانت تعد غايات عليا للنسق فانها تتحقق من خلال تضافر معطيات الواقع الاجتماعى على مستويات

---

(٥٠) Ibid., p. 215

(٥١) Ibid., pp. 215—216

(٥٢) فكرة الاعتماد المتبادل بين أجزاء النسق هى السبب الذى جعل بارسونز ينتمى لفترة الى تيار البنائية الوظيفية فى علم الاجتماع الغربى .

متعـــددة : على مســـتوى انســـاق الفعل حيث يســـهم كل نسق فى تحقيق وظيفـــة من هـــذه الوظـــائف الأربعـــة . يحقق النســـق الاجتمـــاعى التكامل ، ويحقق النسق الثقافى المحافظة على النمط ، ويحقق وظيفة تحقيق الهدف نسق الشخصية ، اما وظيفة التكيف فيحققها النسق العضـــوى السلوكى(٥٤) . وعلى مستوى المكونات البنـــائية للنسق الاجتمـــاعى ذاته فهناك اربعة مكونات للنسق الاجتماعى : المعايير والقيم والجماعات والادوار تحقق المعايير وظيفة التكامل ، وتحقق القيم وظيفة تدعيم النمط ، وتحقق الجماعات وظيفة تحقيق الهدف ، وتحقق الأدوار وظيفة التكيف . وعلى مستوى الانساق الفرعية للنسق الاجتماعى ككل او المجتمع ، فاذا كانت هناك اربعة انساق فرعية فى المجتمع فان كلا منها يحقق وظيفة من الوظائف الأربعـــة للنسق . يتكون النســـق الفرعى الأول من النظم التى تحقق التكامل وهو الانساق القانونية : المحاكم والمهن القانونية والبوليس .ويتكون النسق الفرعى الثانى من النظم المسئولة عن المحافظة على النمط وهو النسق الدينى . ويتكون النسق الفرعى الثالث من النظم المسئولة عن تحقيق الهدف وهو النسق السياسى . واخيرا يتكون النسق الفرعى الرابع من النظم التى تحقق التكيف مع البيئة الخارجية (الانتـــاج) وهو النسق الاقتصادى(٥٥) . ولقد حاول بارسونز ان يحلل كل نسق من هذه الانساق الفرعية الى أنساق فرعية صغرى فى ضوء الوظائف الأربعـــة للنســـق . ففى كتابه « الاقتصـــاد والمجتمع » (٥٦) حلل النسق الاقتصادى الى أربعة أنســـاق فرعيـــة تهتم بالتكامل والمحافظة على النمط وتحقيق الهدف والتكيف . كما حاول ان يقدم تصنيفا مشابها للنسق السياسى فى كتابه « النظرية السوسيولوجية والمجتمع

---

(٥٣) J. Parsons, An Outline of Social System, in J. Parsons and others (eds), Theories of Society, New York, Free Press, 1964, pp. 30–79.

(٥٤) J. Parsons, **The System of Modern Societies**, Prentice Hall, Inc., Englewood Chiffs, New Jersey, p. 5

(٥٥) Bottomore, Sociology as ..., op. cit., p. 32.

(٥٦) Parsons and N. Smelser, **Economy and Society**, Glencoe Ill, The Free Press, 1957.

الحـــديث » (٥٧) . كمـــا قام بتصنيف داخـــلى للتنظيم حيث ميز بين ثلاثة مستويات أو أنساق فرعية : النسق الذى يسهم فى انجاز اهداف التنظيم ، والنسق الادارى الذى يتولى الشئون الداخلية فى التنظيم ، والنسق النظامى الذى يعمل على الربط بين النسق الفنى والنسق الادارى من جهة وبـــين المجتمع من جهة أخرى(٥٨) .

وترتبط النسق الاجتماعى والنسق الثقـــافى ونسق الشـــخصية والنسق العضوى علاقة تبادل وتأثير . فالنسق الاجتماعى لايدخل فى خلاف جذرى مع شروط الأداء الوظيفى لفاعلية الأفراد المكونين له ككائنات بيولوجيـــة (النسق العضوى) وكأشخاص (نسق الشخصية) ، أو مع شروط الأداء الوظيفى والاستقرار النسبى لنسق الثقافة . كما أن النسق الاجتماعى يعتمد على حد ادنى من الدعم أو المدد المطلوب من كلا النسقين الآخرين : يمده نسق الشخصية بأفراد مدفوعين لأن يتصرفوا وفقا لمتطلبات نسق أدوارهم ايجابيا بانجاز التوقعات ، وسلبيا بالابتعاد عن السلوك المحطم اى السلوك المنحرف . ويجنبه نسق الثقافة الارتباط أو التمسك بأنماط ثقافية تكون قد فشلت فى تحقيق حد أدنى من النظام أو تلك التى تفرض متطلبات مستحيلة على أفراد النسق ، ومن ثم تولد درجة من الانحراف والصراع لا تتفق مع الحد الأدنى من ظروف الاستقرار أو التطور المنظم .

ومن ذلك التحليل الدقيق للنسق الاجتماعى وانســـاقه الفرعيـــة ، وللمكونات البنائية له نستشف مدى اهتمام بارسونز بالاعتماد المتبادل بين عناصر النسق الاجتماعى ورؤيته الكلية لهذه العناصر . فكل نسق فرعى يهدف الى تحقيق وظيفة تعد مستلزما أساسيا للنسق ككل اذا غابت ينهار النسق ويختل الأداء الوظيفى لبقية الانساق الفرعيـــة لأن وجودهـــا مرتهن بوجود الأخريات . فالاقتصاد مثلا الذى يهدف الى تحقيق التكيف مع البيئة من خلال عمليات الانتاج لايستطيع أن يعمل دون النسق السياسى . اذ كيف

---

(٥٧) Parsons, Sociological Theory and Modern Society, New York, 1967.

٥٨) السيد الحسينى ، **النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم** ، **مرجع سابق** ، ص ٧٩

يتحقق التكيف فى عدم وجود نظم ترسم الهدف وتسعى الى تحقيقه ، وهى مهمة يقوم بها النسق السياسى ، ومثل ذلك يقال عن بقية الأنساق الفرعية المهم أن نؤكد ان هذا الترابط والتساند الوظيفى بين الأنساق يحقق مستوى عاليا من التكامل بين عناصر المجتمع واجزائه المكونة ويضع المجتمع فى حالة نشاط دائب من أجل تحقيق المتطلبات الوظيفية له . ويضيف ذلك الى رصيد بارسونز فى الدعوة الى النظام نقطة جديدة .

٤ ــ التوازن وميكانيزماته : مستوى رابع للتكامل :

يعد تحليل التوازن داخل النسق الاجتماعى عنصرا اساسيا فى مشروع بارسونز النظرى . فهو الذى يحقق أعلى مستويات التكامل داخل النسق . فالذى يخلق من « الانا » و « الآخر » نسقا تفاعليا ليس الاعتماد المتبادل بين سلوكيهما فقط ، ولكن لأن نسق التفاعل يحوى مجموعة من العناصر تسعى الى أن تحافظ على نفسها وعلى توازنها باستمرار من خلال مقاومة التغير والصراع . ومن هنا تكون دراسة التوازن هى دراسة للطريقة التى تحقق من خلالها عناصر النسق الاستقرار والاستمرار عندما تظهر بعض التغيرات أو الانحرافات داخل النسق (٥٩) .

والتوازن هو أعلى صورة من صور التكامل والنظام داخل النسق . حقيقة أن النسق يحقق تكاملا على مستويات أخرى ، ولكنه قد يكشف ــ برغم ذلك ــ عن مظاهر لسوء التكامل تأتى من مصادر عديدة « فقد يسعى الأفراد الى تحقيق اشباع أكبر من الاشباع الذى يسمح به النسق .. أو من الخلل الذى يحدث فى عملية التطبيع الاجتماعى (التنشئة الاجتماعية) أو تطور النسق بدرجة تفوق درجة تقدم العنصر الثقافى والعكس . وعدم التكامل بين انتقال العناصر الحافزية والعناصر الثقافية .. واهتزاز النسق الاجتماعى ذاته من خلال ارادة الفاعل فى تغيير النسق » (٦٠) . وهنا تظهر أهمية التوازن فى مواجهة كل صور عدم التكامل والتغير هذه فيحقق النسق من خلاله درجة أعلى من التكامل عن طريق مجموعة من

---

(٥٩) A. Gouldner, Coming Crisis, op. cit., p. 231

(٦٠) على ابو ليلة ، **مرجع سابق** ، ص ٤١٠ .

الميكانيزمات والعمليات يولدها بناؤه للمحافظة على ذاته . ان التوازن يحقق مزيدا من التكامل فى نسق متكامل اساسا . ولهذا يعرف التوازن بأنه « دعم النسق لأنماطه المتكاملة والمستقرة والمتبادلة والمتوائمة والثابتة » (٦١) . او اذا استخدمنا كلمات بارسونز نفسه محاولة النسق أن يحافظ على حدوده .

والحقيقة أن كل مظاهر عدم التكامل داخل النسق ينظر اليها بارسونز على انها انحرافات عن الأطر والمعايير القائمة ومن ثم يجب أن يواجهها النسق بعمليات ضابطة تعيد اليه التوازن . يظهر ذلك من تعريفه للانحراف بانه « ميل دافعى عند الفاعل لأن يسلك خلاف ما تقرره واحدة أو اكثر من الانماط المعيارية المتشكلة فى نظم ، أو انه سلوك يميل الى احداث شرخ فى توازن العمليات التفاعلية » (٦٢) . وفى مقابل السلوك الانحرافى يولد النسق مجموعة العمليات التى تواجه هذا السلوك المنحرف ، حصرها بارسونز فى عمليتين : (٦٣) . الأولى تحاول أن تتفادى الانحراف وعدم التكامل قبل أن

---

(٦١) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٦٢) Parsons, Social System, op. cit., p. 200

وتجدر الاشارة الى ان بارسونز قد استعار مفهوم التوازن من عالم الاجتماع الايطالى باريتو Pareto وعالم الاقتصاد الفرد مارشال . ولكن باريتو هو الذى قدم أكثر صياغات هذا المفهوم رواجا فى الأوساط الاقتصادية والسوسيولوجية حيث ذهب الى أن النسق يكون فى حالة توازن عندما يخضع لمجموعة من عمليات التكيف الصناعية (ميكانيزمات الضبط) تختلف عن صور التكيف المعيارية القائمة . ومن خلال هذه العمليات يظهر رد فعل يعيد النسق الى حالته الطبيعية . عن تاريخ المفهوم وآراء باريتو انظر :

D. Mitchell, A Dictionary of Sociology, op. cit., pp. 68—69

تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، **مرجع سابق** ، ص ٢٣٧ — ٢٥٠ .

(٦٣) يعرف بارسونز العملية على النحو التالى : « العملية طريقة يتحول من خلالها النسق أو جزء منه الى حالة أخرى غير حالته الأساسية ، ويعد الميكانيزم جزءا من العملية » انظر كتاب بارسونز ، النسق الاجتماعى السابق الاشارة اليه ، ص ٢٠٤ .

يصيب النسق وهى عملية التنشئة الاجتماعيـــة . والثانيـــة مجموعة من الميكانيزمات يواجه بها النسق الانحراف بعد أن يقع وهى عمليـــة الضبط الاجتماعى .

تهدف عملية التنشئة الاجتماعية الى أن يتشرب الفرد المعايير والتوجيه القيمى السائد فى النسق كى لايحدث فيه أى خلل من نوع معين . فعندما يتشرب كل فرد هذه المعايير والتوجيهات القيمية ، فان النسق الاجتماعى يضحى اسلوبا امثل لعمل الأنساق الفرعية وظيفيا . وتنقسم عملية التنشئة الاجتماعيـــة الى خمس ميـــكانيزمات رئيســـية : التـــدعيم Reinforcement ويهدف الى احداث موازنة بين الاشباع والحرمان من خلال القانون العام الذى مؤداه انه كلما تلقى الشخص درجة اكبر من الاشباع فانه ســـوف يسعى الى أن يدعم النمط والعكس اذا تلقى درجة أقل من الحرمان. والكف Inhibition ويهدف الى تعلم الابتعـــاد عن الســـلوك الموجه بالدافعيـــة فقط دون الأخذ فى الاعتبار مايترتب على هذا السلوك من نتائج . والابدال Substitution ومن خلاله يتم تجـــاوز بعض الاتجـــاهات الانفعـــالية أو نقلها من موضوع لآخر . أى أن يكف الشخص عن الاهتمام بالموضـــوعات القديمة التى لاتحقق درجة عالية من الاشباع وأن يستبدلها بموضـــوعات جديدة تحقق درجة عالية من هذا الاشباع . والمحاكاة imitation ومن خـــلاله يكتسب الفرد عناصر فى الثقافة : نوعا معينا من المعرفة ، أو مهـــارة ، أو ســـلوكا رمزيا معينـــا . وأخيرا التوحـــد identification ويعنى تشرب قيم النسق والتوحد معها (٦٤) . وكل هذه الميكانيزمات تهدف الى خلق مواطن منشأ تنشئة اجتماعية تجعله فى صف النظام القائم دائما ، لكى يعيش حالة مستمرة من التوازن . ولا تترك عمليـــة التنشئة للأسرة ، ولـــكن المجتمع يمارس قدرا كبيرا من الضبط على سيرها بنجاح .

أما عملية الضبط الاجتماعى فهى مجمـــوعة من الميكانيزمات التى من خلالها يمكن مواجهة الميول الانحرافية واعـــادة التوازن الى المجتمع (٦٥) .

---

(٦٤) Parsons, Social System, op. cit,, pp. 209–211

(٦٥) Ibid., p. 250.

فالتنشئة الاجتماعيـــة لاتستطيع وحدها أن تتغلب على التـــوتر فى علاقات التفاعل ، الأمر الذى يؤدى الى ظهور بعض العناصر السلبية فى البنـــاء الداخلى تؤدى الى الانحراف عن المعايير القائمة . هـــذه العناصر السلبية تولد انماطا أربعة من الانحراف تشبه الى حد كبير ما توصل اليه ميرتون فى مقاله عن البنـــاء الاجتمـــاعى والأنومى(٦٦) . وقد قام بارسونز بتصنيفهـــا حسب درجة الامتثال ودرجة الاغتراب رابطا كليهما ببعدى النشـاط والسلبيـــة على النحو التالى(٦٧) .

	السلبية	النشاط
مجال الامتثال	التقبل القهرى فى توقعـــات المكانـــة	الاداء القائم على التوجيه القهرى
مجال الاغتراب	الانسحاب	التمـــرد

ولابد أن يواجه النسق هذه الأنماط الانحرافية بعملية الضبط الاجتماعى التى تنقســـم الى ثلاثة ميـــكانيزمات : الـــدعم Suport ويهدف الى تهدئة القلق النـــاتج عن رد الفعل تجـــاه التوتر . ثم التســـامح permissiveness بمعنى التسامح فى الاستجابات تجاه احباط علاقات التفاعل وما فيهـــا من توقعـــات متبـــادلة . ثم أخيرا تقييد علاقات التفـــاعل Ristriction of Reciprocation وذلك لمحـــاصرة الميل نحو الانحـــراف (٦٨) . وحتى مع

---

(٦٦) انظر : Robert Merton, «Social Structure and Anomie», American Sociological Review, Vol. 3. 1939, pp. 672—680
Reprinted in : Merton, Social Structure and Social Theory, op. cit.,

(٦٧) Parsons, Soocial System, op. cit., p. 257

(٦٨) Ibid., pp. 299—300

وجود هذه الميكانيزمات فان الأفراد من الممكن أن يتعرضوا لتوترات أخرى ذات طبيعة خاصة . وفى مثل هذه الحالات تظهر الظواهر الخاصة التى تقابل هذه التوترات فتحت بعض عوامل القلق ومشاكل التكيف قد يتعرض الفرد لتوتر غير عادى يكون مصدره الدين أو السحر أو بعض الأمور المتصلة بالصحة ، ومن الظواهر التى تنشأ لمقابلة مثل هذه التوترات الطقوس والنظم القانونية . وهناك نوع آخر من التوتر ينشأ من خلال الضوابط الرسمية أو تدرج المكانة . هنا لابد ان تظهر مجموعة من الميكانيزمات اطلق عليها بارسونز ميكانيزمات العزل insulation mechanisms ومهمتها وضع حدود على الضوابط الرسمية وتدرج المكانة لكى لا تدخل الأنساق الفوعية فى صراع لا ينتهى . أنها تمنع العناصر المتصارعة فى الثقافة والبناء الاجتماعى من التصادم الى الدرجة التى يصبح فيها الصراع مفتوحا . ومن الصور المتطرفة لميكانيزمات العزل عزل المجرمين ووضع حدود على الأدوار المريضة(٦٩) .

بهذه الصورة استطاع بارسونز أن يضع كل عنصر من عناصر الواقع الاجتماعى فى وضع يتكامل فيه مع العناصر الأخرى ، ويصل هذا التكامل الى ذروته عندما يخلق النسق أساليب صناعية للمحافظة على بقائه واستمراره عندما تهدده أية تغيرات جذرية أو أى انحرافات عن أصوله ومعاييره . فالنسق الاجتماعى له قدرة على البقاء وهو واثق الصلة ببيئته وهو يخلق دائما من العمليات ما يعمل على تحييد مصادر التغير التى لو استمرت لأحدثت تغيرا جذريا فيه(٧٠) . ويصاحب الحفاظ على حدود النسق مع البيئة أو تكيفه معها تكامل الوحدات المكونة وتضامنها وفى الوقت نفسه قلة التوترات الداخلية(٧١) . ففكرة التوازن ترتبط بفكرة التساند الوظيفى بين أجزاء النسق حيث أكد بارسونز فى كتابه الذى أعده مع ادوارد شيلز « نحو نظرية عامة فى الفعل الاجتماعى » أن الخاصية العامة الأساسية لأى

---

(٦٩) Ibid, pp. 308—309.

(٧٠) Loomes Charles and Zona, **Modern Social Theories**, D. Van Nostrand Company, Inc., N.Y., 1961, p. 414

(٧١) على جلبى ، النظرية واتجاهات تطورها فى علم الاجتماع ، مقال فى كتاب **دراسات فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا** السابق الاشارة اليه ، ص ٢٧ .

نسق من الانساق الاجتماعية تتمثل فى تساند مكونات النسق أو متغيراته ، ذلك التساند الذى يتألف من علاقات محددة قائمة بين هذه المكونات أو تلك المتغيرات ، والذى يناهض عشوائية التغاير . وبعبارة أخرى فان التساند هـــو النظـــام Order فى العلاقات بين المكونات الداخلية للنسق . ذلك النظام الذى يحوى ميلا نحو المحافظة أو الصيانة الذاتية التى يعبر عنها تعبيرا عاما من خلال مفهوم التوازن(٧٢) .

مما سبق نجد أن عملية التوازن داخل النسق لا تعمل على مواجهـــة التوترات الداخلية فقط ، ولكنها تواجه أيضا أية تغيرات خارجية تهدد كيان النسق ، وتحاول دمجها فى بنائه وتشكيلها فى نظم من حيث أن النسق لديه قدرة كبيرة على التكيف .وتحيلنا هذه القضية الى مناقشة رأى البارسونزية فى التغير والصراع . فقد عالج بارسونز هاتين القضيتين — بطريقة تنم عن سعيه المستميت نحـــو تحقيق التكامل والنظام فى النســـــق ومن رؤيتـــه الميتافيزيقية للعالم على انه « كل » يضم أجزاء متفاعلة . ولننتقل الآن الى دراسة هذا الموضوع بشىء من التفصيل .

رابعـــا — قضيتا التغير والصراع فى فكر بارسونز :

تشكل قضيتا التغير والصراع معضلة حقيقية فى فكر بارسونز . فمن فرط اهتمامه بعوامل تحقيق التوازن والاستقرار والاستمرار داخل النسق ، تخطى بارسونز دراسة التغير والصراع وأحالهما الى مجرد ظاهرتين ثانويتين يستطيع توازن النسق ان يبتلعهما باستمرار . والحقيقة أن اهمال دراسة الصراع والتغير وقصور نظرية النسق عن تطوير نفسها بحيث تســـتوعب دراستها كان مصدرا تدفق منه النقد على بارسونز بصفة خاصة والبنائية الوظيفية بصفة عامة . وسوف نرى فى القسم الثانى من هـــذا الكتاب أن هذا التخطى لدراسة الصراع والتغير قد وضع بـــارسونز وتابعيه أمـــام تحديات امبيريقية عندما بدأ البناء الاجتماعى يكشف عن موجات متلاحقة من

---

(٧٢) عبد الباسط عبد المعطى ، **فى نظرية علم الاجتماع** ، مرجع سابق ، ص ١٩٠ — ١٩١ .

الصراعات البنائية والفكرية . وكونت هذه الصراعات البنائية والفكرية بناء جديدا بدأ يدخل فى صراع مع البناء القديم والنظرية المرتبطة بالنظام والتى تفسر هذا البناء . من خلال العلاقة الجدلية بين البناء الفكرى القديم والبناء الفكرى الجديد ظهرت الاتجهات النقدية الحديثة فى محاولة لتصحيح مسار البناء الفكرى القديم . وبنـــاء على ذلك يمكن القول بأن القصـــــور النظـــرى للبارسونزية ، والذى تمثل فى تخطى دراسة الصراع والتغير قد يكون المنطلق الجدلى الذى قامت عليه الاتجاهات النقدية الحديثة فى علم الاجتمـــاع وفى مواجهة هذه الاتجاهات النقدية حاول بارســـونز تطوير مشروعه النظرى ليستوعب دراسة الصراع والتغير ، ولكنه فشل فى ذلك وتخبط فى متاهات تطورية بحيث أصبح ينتمى الى الاتجاه التصورى المحدث الذى يجمع المفكرون على أنه قمة الجوار مع الماركسية (٧٣) . ونود فى هذه الفقرة أن نتتبع فكر بارسونز فيما يتعلق بقضيتى الصراع والتغير .

كتب بارسونز فى كتابه « النسق الاجتماعى » يقول : « اذا كنا نريد أن نتحدث عن نظرية فى التغير فلابد ان يكون لدينا نموذج محدد يستعمل كاطار مرجعى فى دراسة التغير » (٧٤) . وتعنى هذه العبارة ان نظرية النسق التى طورها فى كتابه هذا لايمكن أن تتخذ كاطار مرجعى لدراسة التغير وانما تستطيع فقط أن تدرس عمليات التوازن داخل النسق ،وان نظرية التغير يجب أن تؤجل الى حين تكوين اساس فكرى تقوم عليه . ولذلك جاءت معالجة بارسونز للتغير فى كتابه « النسق الاجتماعى » معالجة تحيلـــه الى عملية تباين تشبه النوع الذى يحدث فى مجال البيولوجيا والبيئة الطبيعية . بل

---

(٧٣) الدليل على ذلك أن اشهر المروجين لهذا الاتجـــــاه وهو والت روستو وسم كتابه عن « مراحل النمو الاقتصادى » بأنه « منشور غـــير شيوعى » . انظر عن الاتجاه التطورى المحدث :

ـــ السيد الحسينى ، اتجاهات علم الاجتماع فى فهم قضايا العالم الثالث **مرجع سابق** ، ص ص ٦٤ ـــ ٧٣ .

ـــ محمد الجوهرى ، **مقدمة فى علم الاجتماع الصـــناعى** ، دار الكتب الجامعية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

(٧٤) Parsons, Social System, op. cit., p. 284.

انه يذهب الى القول بأنه اذا لم تكن هناك نظرية كاملة فى التغير فيجب أن تنطلق فى دراسته من البيولوجيا يقول : « يجب أن نسلم بأنه عندما نناقش نظرية التغير فى الأنساق الاجتماعية ، فاننا لخدمة أغراضنا يجب أن نستعير من التنوع الذى يحدث فى التركيب البيولوجى أو البيئة الفيزيقية .. ومع تأكيدنا على أن اقامة نظرية عامة فى تغير الأنساق الاجتماعية مستحيل ، فاننا لا نزال قادرين على أن نذكر بعض الأشياء المفيدة فيما يختص بالطبيعة العامة لهذه العملية » (٧٥) .

واذا ما تتبعنا عمليات التغير — كما جاءت فى كتاب النسق الاجتماعى — نجدها امتدادا لنظرية التوازن ، وتأكيدا لما يسعى اليه النسق من نظام . فالنسق الاجتماعى بمفهوم بارسونز يعتبر عالما اجتماعيا لديه أساليب دفاعية ضد التوتر وسوء النظام والصراع . فارسونز لم ينظر الى هذه الظواهر على أنها جزء ضرورى من طبيعة الأشياء ، على العكس من ذلك تماما نظر اليها على أنها أقرب الى المرض العرضى الذى يصيب الجسم . فما دام النسق قد حقق قدرا من الاستقرار فانه يميل الى عدم التغير ، واذا حدث فانه يأتى من ضغوط خارجية تتغلب على مقاومة النسق لها ، أو من ضغوط وثيقة الصلة بخصائص النسق ولكنها ذات مصدر عشوائى . ولا تؤدى هذه الضغوط الى احداث تغيرات بنائية حاسمة فى خصائص النسق الأساسية ، ولا يتعدى تأثيرها احداث تغيرات دائرية وايقاعية(٧٦) .

اذا وضعنا فى اعتبارنا أن نظرية التغير عند بارسونز فى هذه المرحلة من تفكيره هى امتداد لنظرية التوازن . فلا ندهش عندما يجعل بؤرة حديثه عن التغير فكرة المصالح المستمرة التى تشكل — فى نظره — مقاومة ثابتة للتغير كامنة فى عملية التشكل النظامى للأدوار . فالأفراد يحافظون على الوضع الراهن للنسق ويقاومون التغير لأنه من مصالحهم جميعا استمرارة على هذه الحالة ويرفض بارسونز فكرة العامل الواحد فى التغير ، ثم يركز بعد ذلك على مجموعة من العوامل السطحية التى لا تولد أبدا تغيرا جذريا فى النسق

---

(٧٥) Ibid., p. 491

(٧٦) A. Gouldner, The Coming Crisis, op. cit., pp. 352—353

من ذلك تطور التشكيل الثقافى ، والتطور فى مجال العلم ، والتغير فى تركيب السكان ، أو تحول البيئة الطبيعية . وهى عوامل لا تؤدى الى التغير وانما تؤدى الى تباين بنائى داخل النسق . يتضح ذلك من دراسته للعمليات التى تحدث داخل النسق والتى تؤدى الى تباينه . تنحصر هذه العمليات فى ثلاثة عمليات رئيسية هى : التشكل النظامى للترشيد وما يصاحب ذلك من هوة ثقافية ومن تغير فى الأدوار المهنية ، ومن توترات تصاحب التغير التكنولوجى ومن تغير فى شكل وحجم الخدمات ، فضلا عن التغيرات التى تحدث فى مجال القرابة ودور الأنثى ، ومعدلات المواليد ، وأنماط التنشئة الاجتماعية ، والادوات المنزلية ، وكلها تغيرات تؤدى الى اعادة تنظيم مستمر للنسق ، والعملية الثانية تتصل بالحركة الكارزمية الثورية ويعتبر بارسونز مثل هذه الحركة امتداد للتوجيهات الدافعية المغتربة عن النظام العام (اى انها نوع من الانحراف) ، ويقاوم النسق مثل هذه الحركة اذا كان نسق القوة فيه أكثر صلابة واستقرارا . أما الثالثة فانها تتعلق بالتحول التكيفى للحركة الثورية حيث يفرض الثوار أشكالا من الضبط الاجتماعى تتنافى مع الحركة الثورية كثورة ويستعيد النسق توازنه من جديد (٧٧) .

هذه هى رؤية بارسونز المبكرة للتغير الاجتماعى ، وهى رؤية تتوقف عند مستوى التغيرات الفرعية لبعض الوحدات الفرعية فى النسق الاجتماعى داخل نطاق توازن واستقرار (٧٨) . ثم تحولت هذه الرؤية فيما بعد الى مزيد من التركيز على التباين داخل النسق . ففى عام ١٩٦٠ كتب بارسونز مقالا بعنوان « بعض الاعتبارات حول نظرية التغير » قدم فيه فكرة التباين الاجتماعى بطريقة أكثر تركيزا . فالتغير الاجتماعى يظهر من خلال التباين البنائى الوظيفى عندما ما تتطور اجهزة جديدة وابنية جديدة لأداء بعض الوظائف . فعندما يفشل نسق معين فى أداء وظيفته بنجاح فان النسق المستقبل لهذه الوظيفة يمارس عليه ضغطا محاولا أن يغيره بالطريقة التى تروقه . ومن خلال هذه العملية تتخلى بعض الأنساق عن وظائفها لأنساق

---

(٧٧) Parsons, Social System, **op. cit.**, pp. 505—527

(٧٨) على ابو ليلة ، **مرجع سابق** ، ص ١٤١ .

اخرى ، وتظهر انساق جديدة تؤدى وظائف جديدة أو تؤدى نفس الوظائف القديمة . وهكذا يمر النسق بعملية تباين بنائى وظيفى . ولا تخرجنا نظرية التباين عن نظرية التوازن . فالتباين لايحدث أى خلل يبعد النسق عن حالة التوازن أو يدفع بعض الأجزاء داخله الى احباط توقعات الأجزاء الأخرى . فالتغير هنا يتم بطريقة منظمة لا تؤثر على التوزيع الأساسى للامتيازات داخل النسق ولا تهدد مراكز القوة القائمة فيه (٧٩) .

وفى منتصف الستينات ، وأمام موجة عاتية من النقد ، اندفع بارسونز نحو التطورية . وتعد النزعة التطورية البارسونزية تصعيدا للجدل مع الماركسية فى ضوء ما يوجد من مجتمعات شيوعية معاصرة على خلاف ما يذهب جولدنر (٨٠) . وذلك بهدف ابراز المجتمع الأمريكى على انه قمة ما يرنو اليه اى مجتمع من تطور .

تتركز فكرة التطور عند بارسونز فيما اسماه بالعموميات التطورية Evolutionary universals والعمومية التطورية ماهى الاتجديد بنائى له قدرة فائقة على التكيف تمكن هذا التجديد من الاستمرار والبقاء . ويؤدى هذا التجديد متى حقق تكيفا الى تطورات أخرى ويرتبط بأنساق أخرى تعمل تحت ظروف مختلفة (٨١) . وبعض هذه العموميات التطورية ، أو التجديدات الكبرى على ما نقول ، هى التى أدت الى أن تتجاوز المجتمعات نطاق المجتمعات البدائية او القبلية التى تتحكم فيها النظم القرابية فعلى انقاض هذه المجتمعات قام المجتمع الحديث بفضل بعض العموميات التطورية ، لا ليتوقف عن التطور ولكن ليستمر فى هذا التطور من خلال عموميات أخرى . عموميتان تطوريتان هما اللتان ادتا الى انهيار المرحلة

---

(٧٩) A. Gouldner, The Coming Crisis, op. cit., pp. 357–360

(٨٠) يحاول جولدنر أن يكشف عناصر الالتقاء بين البارسونزية والماركسية خلال حديثه عن أزمة كل منهما .

(٨١) Parsons, Evolutionary universals in Society, American Sociological Review, XXIX, No. 3, 1964. p. 339

البدائية من التطور المجتمعى : ظهور نسق الشرعية الثقافية ليؤدى وظائف مجتمعية متباينة (خاصة الوظائف السياسية) ، وتطور نسق التدرج الاجتماعى . واربعة عموميات تطورية هى التى ادت الى ظهور المجتمع الحديث : ظهور نسق النقود والاسواق ، وظهور البيروقراطية ، وظهور النسق القانونى ، وظهور الهيئات الديمقراطية . ولم تعمل هذه العموميات بعيدا عن بعض التطورات الاجتماعية والثقافية . فتلك الاخيرة تعد بمثابة شروط لازمة تعمل فى اطارها العموميات التطورية . وحصر بارسونز هذه الشروط فى اربعة تطورات اجتماعية : اللغة ، والقرابة ، والدين ، والتكنولوجيا (٨٢) .

وفى عام ١٩٦٦ أصدر بارسونز كتابا بعنوان : المجتمعات : منظورات تطورية ومقارنة(٨٣) . طور فيه فكرة العموميات التطورية ليطبقها على مقارنة المجتمعات التى تمثل نماذج حضارية متعددة مركزا على دراسة عمليات التغير فى هذه المجتمعات . وحدد بارسونز فى هذا الكتاب المكونات الأساسية للتطور فى عمليات ثلاثة : هى التباين ، والتكامل ، والتعميم . وهى تؤدى الى زيادة القدرة التكيفية للوحدات الخاضعة لها . فبعد عملية التباين يؤدى التكامل الى زيادة درجة تكيف للوحدات المتباينة ، ثم يؤدى التعميم الى ظهور بناء قيمى جديد يناسب العناصر الجديدة الى تولدت عن عملية التباين . وبعد ذلك يحاول بارسونز أن يقدم ثلاثة مستويات تطورية تتيح كل منها وجود مجتمعات متنوعة ومختلفة : المستوى البدائى حيث تتحكم التوجيهات الدينية فى الوجود الاجتماعى وتركيز العلاقات والتنظيم الاجتماعى على أساس قرابى ، ويعد هذا المستوى نموذجا متقدما من المجتمعات قائما على نسق القرابة والتنظيم السياسى . أما المستوى الثانى فهو المستوى الوسيط الذى ظهر بظهور الكتابة والقراءة والديانة الكهنوتية . وينقسم

---

(٨٢) Ibid., pp. 341—342

(٨٣) Talcott Parsons, **Societies : Evolutionary and Compara tive perspectives**, Engleweood Cliffs, N.J. Prentice Hall, 1960.

هذا المستوى — مثل سابقه — الى مرحلتين : مرحلة المجتمعات القديمة والمجتمعات التاريخية وتمثل الأولى مصر الفرعونية والثانية مجتمعات الصين القديمة والمجتمعات الاسلامية العربية والهند . اما المستوى الثالث فهو مستوى البذور الحضارية اى انه المستوى الذى قام عليه المجتمع الغربى الحديث ويمثله المجتمع الأغريقى والمجتمع الاسرائيلى القديم .

وقد أكمل بارسونز كتاب « المجتمعات » بكتاب آخر بعنوان « نسق المجتمعات الحديثة » (٨٤) . أوضح فيه تطور الحضارة الغربية الحديثة على أساس الأسس التى ظهرت فى مرحلة البذور الحضارية وأعنى الأغريق القديمة والمجتمع الاسرائيلى القديم .

يوضح هذا العرض لرأى بارسونز فى قضايا التغير كيف يشكل التغير معضلة أساسية فى مشروعه النظرى . وكيف أن دفاعه عن النظام قد دفعه لأن يعالج التغير من منظور تطورى من خلال المقارنة بين المجتمعات لكى يحقق هدفين مزدوجين : أن يكسب نظريته طابع العالمية ، وأن يكون جبهة قوية تعارض الماركسية . ليس أدل على ذلك من انه قد أولى العناصر القيمية أو الثقافية أهمية كبيرة فى عمليات التطور . فعمليات التباين والتكامل والتعميم التى عرضها فى كتابه « المجتمعات » لا تتم الا فى المستويات الثقافية والقيمية . وذلك يؤكد أهمية القيم والمعايير فى المشروع النظرى لتالكوت بارسونز فهى تغلف النسق الاجتماعى فى تفاعل أجزائه وفى توازنه ، وفى تطوره . وهذا هو الذى دفعنى الى أن أسم حله لمشكلة النظام بأنه حل معيارى

هذا عن التغير فماذا عن الصراع . تؤكد دراسة بارسونز للصراع نفس القضايا التى ذهبنا اليها هنا ، وأعنى اهتمامه بالتوازن والنظام ، بحيث تعتبر دراسة الصراع — مثل دراسة التغير — معضلة جوهرية فى فكر

---

(٨٤) T. Parsons, **The System of Modern Societies,** Prentice Hall, Inc., Englewood Cliffs, N.J. 1971.

بارسونز . ففى مقال له عن « الطبقات والصراع الطبقى فى ضوء النظرية السوسيولوجية الحديثة » (٨٥) . ذهب بارسونز الى اننـــا لا يمكن أن ندرس الصراع الطبقى فى ضوء النظريات الماركسية فالصراع ليس له هذا النظام الحتمى الذى صاغه فيه ماركس . وفى ضوء النظرية السوسيولوجيـــة الحديثة يمكن دراسة التدرج الاجتماعى حيث يخلق كل المعايير التى تحدد المراتب العليا والمراتب الدنيا ، وهى معايير تميل الى أن تكون جـــزءا من النظام . ويقوم نظام التدرج الاجتماعى على تباين مستويات المهـــارات والأدوار ، وتباين درجة تحمل المسئولية فى تنظيم افعال الآخرين ، والتباين فى انساق الملكية والدخل . وفى ضوء كل هذا يكون المجتمع بمثابة شرائح قائمة على التباين وتحدد المعايير مكانتها فى نسق التدرج الاجتماعى ، الذى يعد بناء متكاملا داخل النسق الاجتماعى .

وعندما ينتقل بارسونز لمعالجة الصراع بصورة على انه مرض . فنجاح النسق يتمثـــل فى قدرته على تطوير ميكانيزمات كافية للضبط الاجتمـــاعى للتغلب على اشكال الصراع . أما عن مصادر هذا الصراع فان المصادر التى قدمها لا تلمس مشكلة الصراع الحقيقـــة التى تنتج من علاقات الاستغلال التى يتميز بها المجتمع الرأسمالى ، وانما هى مصـــــادر سطحية حصرها بارسونز فى ستة مصادر : الصراع الناتج عن التنافس الكامن فى النسق المهنى ، ومقاومة قواعد السلطة ، واستغلال الاقوياء للضعفاء ؛ اختلاف الثقافات باختلاف وتباين الأبنية ، وتباين الاشكال القرابية ، وعدم تكافؤ الفرص . ولو أن بارسونز عالج هذه المشكلات الصراعية دون ان يقابلها بميكانيزمات الضبط لتفادى المعضلة فيها . ولكنه على العكس من ذلك اهتم بجوانب التوازن والتناغم الى درجة انه اعتبر أن مصادر الصراع هذه لابد أن تجتث عن طريق ميكانيزمات يولدها النسق .

---

(٨٥) T. Parsons, «Classes and Class Conflict in the light of Recent Sociological Theory», in : T. Parsons, **Essays in Sociological Theory**, The Free Press of Glencoe Colliar-Macmillan Limited, London, 1964, pp. 323—333.